

The Islamic University of Gaza
Deanship of Research and Graduate Studies
Faculty of Arts
Master of History



الجامعة الإسلامية بغزة
عمادة البحث العلمي والدراسات العليا
كلية الآداب
ماجستير تاريخ

صورة المغول من خلال كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار

لابن فضل الله العمري

(700 هـ - 749 هـ / 1301 م - 1348 م)

دراسة تاريخية منهجية

**The Image of Mughals from the Book Masalik
Al-Abesar in the Kingdoms of Al-Amsaar by
Ibn Fadlallah Al-Omari
(700 AH-749 AH / 1301 AD-1348 AD)
A Historical and Methodical Study**

إعداد الباحث

سعيد أسعد سعيد الحبشي

إشراف

د. غسان محمود وشاح

أ. د. أنيس محمد جاسم المشهداني

قُدِّمَ هَذَا البحثُ استكمالاً لِمَتطلباتِ الحُصولِ على دَرَجَةِ المَاجستيرِ
في التاريخ في قسم التاريخ والآثار كلية الآداب في الجامعة الإسلامية بغزة

2021م / 1442هـ

إقرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل عنوان:

صورة المغول من خلال كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار
لابن فضل الله العمري
(700 هـ - 749 هـ / 1301 م - 1348 م)

دراسة تاريخية منهجية

**The Image of Mughals from the Book Masalik
Al-Abesar in the Kingdoms of Al-Amsaar by
Ibn Fadlallah Al-Omari
(700 AH-749 AH / 1301 AD-1348 AD)
A Historical and Methodical Study**

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه
حيثما ورد، وأن هذه الرسالة ككل أو أي جزء منها لم يقدم من قبل الآخرين لنيل درجة أو لقب
علمي أو بحثي لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

Declaration

I understand the nature of plagiarism, and I am aware of the University's policy on this. The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted by others elsewhere for any other degree or qualification.

Student's name:

سعيد أسعد الحبشي

اسم الطالب:

Signature:

سعيد أسعد الحبشي

التوقيع:

Date:

التاريخ:



هاتف داخلي: ١١٥٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عمادة البحث العلمي والدراسات العليا

الجامعة الإسلامية بغزة

The Islamic University of Gaza

الرقم Ref

التاريخ Date

نتيجة الحكم على أطروحة ماجستير

بناءً على موافقة عمادة البحث العلمي والدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحث/ سعيد اسعد سعيد الحبشي لنيل درجة الماجستير في كلية الآداب/ قسم التاريخ وموضوعها:

صورة المغول من خلال كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري
(٧٠٠هـ - ٧٤٩هـ / ١٣٠١م - ١٣٤٨م)
دراسة تاريخية منهجية

The Image of Mughals from the Book Masalik Al-Abesar in the
Kingdoms of Al-Amsaar by Ibn Fadlallah Al-Omari
AH-749 AH / 1301 AD-1348 AD) ٧٠٠)
A Historical and Methodical Study

وبعد المناقشة التي تمت اليوم الاثنين ٢ ذو الحجة ١٤٤٢هـ الموافق ١٢/٠٧/٢٠٢١م الساعة الواحدة مساءً، في قاعة اجتماعات كلية الآداب اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة والمكونة من:

مشرفاً ورئيساً

د. غسان محمود وشاح

مشرفاً

د. أنيس محمد المشهداني

مناقشاً داخلياً

د. إبراهيم أحمد أبو شيكة

مناقشاً خارجياً

د. مروان سالم صادق

وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الباحث درجة الماجستير في كلية الآداب/ قسم التاريخ.

واللجنة إذ تمنحه هذه الدرجة فإنها توصيه بتقوى الله تعالى ولزوم طاعته وأن يسخر علمه في خدمة دينه ووطنه.

والله ولي التوفيق،،،

عميد البحث العلمي والدراسات العليا

أ.د. بسام هاشم السقا



عميد كلية الآداب
د. أحمد منة
26-7-2021



ملخص الرسالة:

تناولت هذه الدراسة صورة المغول من خلال كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري، وبدأت الدراسة بالتعريف بابن فضل الله وأسرته وشيوخه وأهم مؤلفاته، والتعريف بكتابه مسالك الأبصار ومنهجه في تأليفه، ثم بدأت بتعريف المغول وأصل نشأتهم، وتوحدتهم بعد الشتات تحت قيادة جنكيز خان، وقوانين جنكيز خان "الياسا"، وخروجهم لتدمير الدولة الخوارزمية بعد قتل الخوارزميين قافلة تجار مسلمين تابعين للمغول، ثم تناولت تقسيم الإمبراطورية بين أبناء جنكيز خان، وإسلام بركة خان وإعلانه الحرب على هولاكو بعد تدمير بغداد، وانقسام الإمبراطورية إلى ثلاثة دول، ثم افردت الدراسة فصلاً للحياة الاجتماعية وما لهم من عادات وتقاليد وأعياد، وطبقات المجتمع المغولي وبساطته وعوامل تماسكه، والأديان وتعددتها، وظهور النفوذ الإسلامي لدى المغول، منذ عهد جنكيز خان، وسيطرة المسلمين على البلاط المغولي في فترات طويلة، والحرية الدينية التي لقيها المسلمين، وانتشار الإسلام بين المغول، حتى أعلن غازان الإسلام الدين الرسمي لدولته، وخصصت الدراسة جزءاً للمرأة المغولية والمكانة الرفيعة التي شغلتها من قيادة الإمبراطورية والجيوش، وحريتها الدينية والاقتصادية، وعفتها وبعدها عن الفجور، وتطرق لدور السبايا المسلمات في تربية أبناء المغول والتأثير الإسلامي الذي تركوه في أبنائهم، ودرست الأحوال الاقتصادية للدولة المغولية، ثم ذكرت إهمال المغول للزراعة، ثم تطرقت لاهتمامهم بالثروة الحيوانية خاصة الخيول، واستفادة المغول من خبرة المسلمين في التجارة، وتوفير المغول الأمن والاستقرار للتجار، وقضائهم على طائفة الحشاشين التي أرقت الدول الإسلامية زمناً طويلاً، وذكرت تحكم المغول بالتجارة الدولية وإصدارهم لعملات ورقية، واعتمادهم على الضرائب كمورد مالي أساسي، ودرست العمارة المغولية وتأثرها بالعمارة الإسلامية واستخدام المهندسين والصناع المسلمين، وخصصت الفصل الأخير لدراسة المؤسسة العسكرية المغولية، من نشأة الجيش المغولي، وتنظيمه الفريد في عصره، والرتب والقوانين العسكرية، والتدريب وبسالة الجيوش، وأصول الحرب المغولية وبراعة التخطيط، ومنظومة الاتصالات المتطورة، وتقليد الممالك لها، وأساليب القتال المغولي، والتترس بالمسلمين، وسلاح الهندسة، والاستفادة من الخبرات المسلمة في التصنيع العسكري.

Abstract:

This study addressed the representation of the Mongols in the book “Masalak al-Absar Fi Mamalek Al-Amsar” by Ibn Fadlallah Al-Omari. I first introduced Ibn Fadlallah, his family, his sheikhs, and his most important writings. I also touched on “Masalak Al-Absar” and his method of composing it. I began by introducing the Mongols and their historical origins by exploring how they were united after their diaspora under the reign of Genghis Khan. I then tackled the division of the empire between the sons of Genghis Khan, the Islam of Baraka Khan and his declaration of war on Hualku after the destruction of Baghdad and ended by addressing the division of the empire into three countries.

My study singled out a chapter to explore the Mongol social life: their customs and traditions, their social classes, the simplicity of their society, and its cohesion factors. The chapter also examined religions practiced and their plurality, observing the emergence of the Islamic influence among the Mongols under the reign of Genghis Khan. I also mentioned how Muslims dominated the Mongol court for long periods and referred to the religious freedom Muslims enjoyed. The study, moreover, addresses the spread of Islam, until Ghazan declared Islam the official religion of his state. Furthermore, the study devoted a substantial part to the high statuses Mongol women sustained as leaders in the empire and its armies.

I also extensively studied the economic conditions of the Mongol state, then mentioned the Mongol neglect of agriculture. In addition, I touched upon their interest in livestock, especially horses, and how the Mongols benefited from the Muslims’ experience in trade, providing The Mongols gave security and stability to the merchants, and their elimination of the Assassin sect, which had harassed the Islamic countries for a long time. The study also mentioned the Mongols’ control of international trade, their issuance of paper currencies, and their dependence on taxes as a primary financial resource. I also studied Mongol architecture, how it was influenced by Islamic architecture.

I devoted the last chapter of the study to The Mongol Military Institution; from the inception of the Mongol army, to its unique organization, its military ranks and laws, valor of the armies, the advanced communications systems, the Mamluks’ imitation, their weapon engineering, and recruiting Muslims in military industrialization.

[يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ
دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ] {المجادلة: 11}

الإهداء:

- ❖ إلى أرواح شهداء معركة سيف القدس.
- ❖ إلى روح أبي الغالي رحمه الله.
- ❖ إلى والدتي العزيزة حفظها الله.
- ❖ إلى زوجتي الغالية وأبنائي الأحباب (براء ومحمد وعلي).
- ❖ إلى ابنتي المؤنسة الغالية (آية).
- ❖ إلى أخوتي وأخواتي الأحباب.

شكر وتقدير:

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، فالشكر لله أولاً وأخيراً.

ثم الشكر والعرفان للدكتور الفاضل: غسان محمود وشاح الذي أولاني الاهتمام وزملائي منذ اليوم الأول لنا في دراسة الماجستير ولم يبخل بوقت ولم يكتم علم ودعمي وأرشدني حتى أنهيت كتابة هذه الرسالة.

والشكر للدكتور: أنيس محمد المشهداني، الذي تشرفت بإشرافه على رسالتي من أرض الرافدين.

كما أتقدم بالشكر الجزيل لأعضاء لجنة المناقشة، الدكتور الفاضل: إبراهيم أحمد أبو شبكة والأستاذ الدكتور: مروان سالم نوري واللذان تكروا بقبول مناقشة هذه الرسالة.

الباحث

سعيد أسعد الحبشي

فهرس المحتويات:

ملخص الرسالة:	ب.....
Abstract:	خطأ! الإشارة المرجعية غير معروفة.
الإهداء:	و.....
شكر وتقدير:	ز.....
فهرس المحتويات:	ح
المقدمة:	1.....
أولاً: أهمية الدراسة:	2.....
ثانياً: أهداف الدراسة:	2.....
ثالثاً: حدود الدراسة:	2.....
رابعاً: منهج الدراسة:	2.....
خامساً: تقسيمات الدراسة:	3.....
الفصل الأول: تعريف بابن فضل الله العمري - وتعريف بالمغول	4.....
المبحث الأول: نسبه وسيرته	5.....
نسبه وسيرته:	5.....
أسرته:	6.....
شيوخه:	8.....
وفاته:	12.....
المبحث الثاني: مؤلفات ابن فضل الله العمري وتعريف بكتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار	13.....
أهم مؤلفات ابن فضل الله العمري	13.....
التعريف بكتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار	15.....
منهج ابن فضل الله في تأليف كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار:	25.....
المبحث الثالث: تعريف بالمغول من خلال كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار	28.....
تعريف المغول:	28.....
أصول المغول:	28.....
القبائل في منغوليا قبيل قيام دولة جنكيز خان:	29.....
جنكيز خان وتأسيس الإمبراطورية وتوسعها.	32.....
توحيد القبائل تحت راية جنكيز خان:	32.....

34	إدارة الإمبراطورية:
35	تقسيم الملك بعد جنكيز خان:
40	الفصل الثاني: الحياة الاجتماعية والدينية لدى المغول من خلال كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار.
41	المبحث الأول: مكونات المجتمع
41	الطبقة العامة:
42	الطبقة الحاكمة:
43	طبقة التجار والحرفيين:
44	طبقة الرقيق:
45	عوامل تماسك المجتمع المغولي:
51	المبحث الثاني: الدين العادات والتقاليد والأعياد
51	الدين في المجتمع المغولي:
55	تأثر السياسة بالدين في العصر المغولي:
56	المغول والعادات والتقاليد:
64	المبحث الثالث: المرأة المغولية
64	أولاً: الدور الاجتماعي للمرأة عند المغول:
66	دور المرأة المغولية في الحياة العامة:
67	قيام النساء بالحكم وقيادة الجيوش:
	الفصل الثالث: الأحوال الاقتصادية والعمرانية والحضارية للمغول من خلال كتاب مسالك الأبصار في ممالك
69	الأمصار
70	المبحث الأول: مصادر المياه والثروة الزراعية والحيوانية
74	الثروة الحيوانية:
78	المبحث الثاني: الصناعة
81	صناعة وسائل المواصلات:
85	المبحث الثالث: التجارة
88	أسعار وأنواع العملات:
90	أهم الأصناف التجارية:
92	الضرائب:
95	المبحث الرابع: العمارة

96	أولاً: العمارة الموروثة عن الأمم السابقة وحافظ عليها المغول:
101	ثانياً: العمارة التي أنشأها المغول ابتداءً:
105	الفصل الرابع: النظام العسكري المغولي من خلال كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار
106	المبحث الأول: الجيش المغولي
106	تأسيس الجيش:
108	تنظيم القوات:
110	الحرس الإمبراطوري:
111	تعداد الجيوش المغولية:
112	القوانين العسكرية والقضاء:
114	التدريب:
116	المبحث الثاني:
116	الاتصالات:
119	الإمداد:
121	سلاح الهندسة:
123	الرواتب:
125	المبحث الثالث: أصول الحرب المغولية
125	أصول الحرب:
125	مبدأ التأمين:
127	وحدة القيادة:
129	الروح المعنوية:
131	المناورة والمباغلة:
132	حشد القوة والاقتصاد بالقوة:
133	البساطة:
134	التعرض:
135	الخاتمة:
135	أولاً: النتائج:
138	ثانياً: التوصيات:
139	قائمة المصادر والمراجع:

المقدمة:

ارتبطت صورة المغول في التاريخ الإسلامي بالحروب والدمار والمجازر، وصورهم بعض مؤرخي القرن السابع الهجري بصورة رعب تكاد تصنع منهم نموذج خيالي، يقول ابن الأثير معلقاً على تدمير المغول للخلافة العباسية في بغداد سنة (656هـ = 1258م) "لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظماً لها، كارهاً لذكرها، فأنا أقدم إليه رجلاً وأُخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أُمي لم تلدني، وبالييتني مت قبل حدوثها وكنت نسياً منسياً"، وفي المقابل ظهرت كتابات تاريخية إسلامية تمجد المغول وتعطيهم صورة عظيمة في القيادة والأخلاق والعطف على المسلمين وتقريبهم إليهم، لكن الملاحظ أن جميع هؤلاء المؤرخين عملوا في البلاط المغولي، واستفادوا من مزاياه.

ومقابل ذلك ظهر في المشهد مؤرخ مسلم عمل كاتباً للإنشاء في الدولة المملوكية العدو التقليدي للمغول في مصر والشام، وألف موسوعته الضخمة مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، وتخصص في التاريخ الحضاري، وأعطى صورة عن المغول هي الأقرب للموضوعية والحياد، واعتمد منهجية تاريخية رصينة بعيداً عن التحيز، كما أنه ذكر تفاصيل عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والنواحي الدينية، لم تُذكر عند غيره من المؤرخين الذين ركزوا كتاباتهم عن أحداث المعارك واجتياح المغول لأراضي المسلمين وما صاحبه من دمار.

وقد أثرت دراسة واقع المغول، أصلهم وطبيعتهم، دينهم ومجتمعهم، حضارتهم ومؤسستهم العسكرية، بعيداً عن إطلاق أحكام مسبقة، بنفس متجردة حيادية.

واعتمد الباحث في هذه الدراسة كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري، وقارنه بالكتب التاريخية الأخرى التي تتناول المغول، وأهمها كتب؛ فاتح العالم للجويني الذي عمل في بلاط هولاكو، وكتاب جامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله الهمذاني الذي عمل في بلاط ثلاثة من الملوك المغول، وكتاب أبو سليمان داوود البناكتي شاعر البلاط المغولي والمقرب من محمود غازان، وكتاب طبقات نصري لمنهاج الدين الجوزياني الذي حمل السيف وقاتل ضد المغول، وكتاب رحلات ماركو بولو الذي كان نصرانياً من أوروبا عاش فترة طويلة من الزمن في بلاط قوبلاي خان في الصين، وقام الباحث بالمقارنة بينها وأظهر جوانب التوافق أو التناقض، كما وحاول تحليل سكوت المصادر عن بعض الأحداث والوقائع، لإظهار الصورة الأقرب لحقيقة المغول.

أولاً: أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة في الآتي:

- 1- قلة الدراسات الأكاديمية التي تعتني بالحضارة والصورة المغولية، على الرغم من أهمية البحث في تاريخ أمة غيرت من خارطة العالم واسقطت الخلافة الإسلامية.
- 2- تقديم صورة واضحة عن المعتقدات والعادات والتقاليد المغولية دون التهوين أو التهويل.
- 3- تقديم مادة علمية عن المغول وإبرازها حتى تكون مرجع للباحثين والمهتمين.
- 4- فك الاشتباك بين المؤرخين في الروايات التي تتحدث عن المغول بغية الوصول إلى أقرب صورة إلى الحقيقة.
- 5- إبراز أهمية كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار في تناول التاريخ المغولي.
- 6- قياس مستوى أداء المصادر التاريخية في تناول صورة المغول.

ثانياً: أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى:

- 1- إبراز أهمية كتب التراث في التعرف على أحوال المغول.
- 2- تسليط الضوء على الدولة المغولية وطبيعة الحياة المدنية والعسكرية فيها.
- 3- الوقوف على طبيعة العلاقة بين المغول والمسلمين وتتبع تطورها عبر المراحل التاريخية المختلفة كما يصورها المؤرخون المسلمون.

ثالثاً: حدود الدراسة:

- 1- الحد المكاني: الإمبراطورية المغولية القديمة (من شرق آسيا إلى العراق وحدود بلاد الشام).
- 2- الحد الزمني: تناولت هذه الدراسة الفترة الواقعة ما بين (520هـ-749هـ = 1126م-1348م).

رابعاً: منهج الدراسة:

اتبع الباحث في دراسته المنهج التاريخي الوصفي التحليلي.

خامساً: تقسيمات الدراسة:

قسمت الدراسة إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة ثم قائمة بأهم المصادر والمراجع، فأما المقدمة فقد احتوت على تعريف بالموضوع وأهميته وأهداف الدراسة ومنهجها وحدودها وتقسيماتها.

وأما الفصل الأول: فقد اهتم بالتعريف بابن فضل الله العمري والتعريف بالمغول.

وتناول الفصل الثاني: الحياة الاجتماعية والدينية لدى المغول.

وعالج الفصل الثالث: الأحوال الاقتصادية والعمرانية والحضارية للمغول.

وناقش الفصل الرابع: النظام العسكري المغولي.

وأنهى الباحث الدراسة بخاتمة: حول أهم النتائج والتوصيات، ثم قائمة المصادر والمراجع.

الفصل الأول: تعريف بابن فضل الله العمري –
وتعريف بالمغول

المبحث الأول: نسبه وسيرته

• نسبه وسيرته:

هو شهاب الدين أبو العباس، أحمد بن محيي الدين أبي زكريا يحيى بن أبي المعالي بن أبي الفضل المجلي بن جمال الدين بن خلف بن أبي الفضل نصر بن منصور بن عبيد الله بن عدي بن محمد بن أبي بكر عبد الله بن عبيد الله بن أبي بكر بن عبيد الله بن الصالح بن أبي سلمة عبد الله بن عبيد الله بن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي العمري⁽¹⁾.

ولد في الثالث من شهر شوال من عام (700هـ=1301م)⁽²⁾، وذكر ابن ناصر الدين أنه ولد سنة (697هـ=1298م)⁽³⁾، لأسرة عريقة يعود نسبها إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه⁽⁴⁾، نزل أجداده في مصر وتقلوا بينها وبين الشام، وتولت عائلته كتابة السر في الديوان زمن طويل⁽⁵⁾، لاقت تربيته مع أشقائه اهتمام كبير من والده، وحرص على تلقيهم العلم على أيدي كبار العلماء والسيوخ، وتميز منذ طفولته بأخلاقه العالية، وظهر ذكائه مبكراً، وتميز بقوة الحفظ وسرعة البديهة، وفهمه الشديد واستنباطه الدقيق، وكان شاعراً يلقي الشعر ارتجالاً، وصفه الصفدي بأنه "إمام أهل الأدب"⁽⁶⁾، ووصفه القلقشندي بـ"ملك الكتابة وإمامها وسلطان البلاغة ومالك زمامها"⁽⁷⁾ تعلم الكتابة في الديوان من والده في مصر حتى تولى الكتابة نيابة عنه⁽⁸⁾. كان قاضياً وفقهياً على المذهب الشافعي⁽⁹⁾، أديباً من أهم أدباء عصره وأكثرهم فصاحة⁽¹⁰⁾.

(1) معجم المحدثين، الذهبي (ص 45)؛ أعيان العصر، الصفدي (1/ 114)؛ الوافي بالوفيات (3/ 109)؛ فوات الوفيات، الكتبي ابن شاكر (1/ 157)؛ طبقات الشافعية، ابن قاضي شعبة (3/ 16)؛ الدرر الكامنة، ابن حجر (1/ 393)؛ المنهل الصافي، ابن تغري (2/ 261).

(2) العبر، الذهبي (4/ 152)؛ الرد الوافر، ابن ناصر الدين (ص: 81)؛ الدرر الكامنة، ابن حجر (1/ 395)؛ نيل الأمل، زين الدين الملطي (1/ 118).

(3) الرد الوافر (ص: 81).

(4) أعيان العصر، الصفدي (1/ 114).

(5) النجوم الزاهرة، ابن تغري (7/ 339).

(6) فوات الوفيات، الكتبي ابن شاكر (1/ 157).

(7) صبح الأعشى (32/1).

(8) البداية والنهاية، ابن كثير (14/ 164) ط احياء التراث.

(9) السلوك، المقرئ (2/ 159).

(10) أعيان العصر، الصفدي (1/ 114).

اشتهر بحدة المزاج، وحدث أن اختلف مع السلطان الناصر محمد بن قلوون⁽¹⁾ في أمرٍ أمره إياه وجادله بشدة، وذكر المقرئ في المقفى الكبير الحادثة في قوله "قأبى شهاب الدين من ذلك وشافه السلطان بكلام خشن وقد قويت نفسه وشرست أخلاقه على عادته، واسترسل في الكلام الجافي" ثم قال للسلطان أمام الأمراء "وخدمتك عليّ حرام، ما يفلح من يخدمك، وقام من بين يدي السلطان مغضباً، والأمراء وقوف بالخدمة، وقد اقشعروا من كلامه، وما شكوا في أن السلطان يضرب عنقه"⁽²⁾، والنص دليل على قوة شخصية ابن فضل التي وصلت به إلى تحدي السلطان وكلامه بكل جرأة دون خوف أو وجل.

• أسرته:

نشأ ابن فضل الله في أسرة رفيعة القدر والمكانة في العصر المملوكي، فكان كل من والده وأعمامه من كتاب السر في مصر والشام، وعمل عدد منهم في القضاء على المذهب الشافعي، وقد انتقلت هذه المهنة منهم إلى أبنائهم، وبعض أحفادهم، ويذكر المؤرخين عدد من أبناء عائلة فضل الله العمري في السير والتراجم، ما يُظهر علو شأن هذه الأسرة، وقد كان حُسن السمات والسير والأخلاق ظاهراً بوضوح في تراجم كل من والد ابن فضل الله، وأعمامه، وأشقائه وأبناء الأشقاء⁽³⁾، ونذكر منهم:

1. بدر الدين محمد بن فضل الله بن مجلي العدوي القرشي (ت 706هـ=1307م).

القاضي بدر الدين، أحد الإخوة، شرف الدين عبد الوهاب ومحيي الدين بن يحيى بن فضل الله العمري، وجميعهم عمل في كتابة السر في مصر والشام⁽⁴⁾، أسره المغول في عهد غازان⁽⁵⁾، وهرب من أسرهم وعاد إلى دمشق سنة (704هـ=1305م)، وهو عم شهاب الدين بن فضل الله العمري⁽⁶⁾.

⁽¹⁾ السلطان المملوكي الملك الناصر، ناصر الدين ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين الصالح (684هـ

=1285م - 741هـ = 1341م) أعيان العصر، الصفدي (5/76).

⁽²⁾ المقفى الكبير، المقرئ (1/451).

⁽³⁾ أعيان العصر، الصفدي (5/52).

⁽⁴⁾ المصدر نفسه.

⁽⁵⁾ محمود غازان بن أرغون بن أبغا بن هولاكو بن تولي بن جنكيز خان، اعتنق الإسلام سنة (694هـ=1295)

وأصدر قراراً يقضي بأن الإسلام هو الدين الرسمي للدولة. المصدر نفسه (5/4).

⁽⁶⁾ المصدر نفسه (5/52).

2. شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله أبو محمد الأثير القرشي (ت717هـ=1317م).

عبد الوهاب بن فضل الله بن المجلي بن دعجان بن خلف، القاضي شرف الدين أبو محمد القرشي العمري ولد في ثالث ذي الحجة سنة (623هـ=1226م) بدمشق، كان إماماً فقيهاً وكاتباً، تنقل في الوظائف حتى أصبح كاتب الديوان في مصر، وهو أول كاتب سر من آل فضل الله، وبدأ عمله في كتابة السر للملك الأشرف خليل بن قلاوون⁽¹⁾، كانت له مكانة كبيرة في قلوب من عمل لديهم مثل، حسام الدين لاجين⁽²⁾، والملك الأشرف خليل ابن قلاوون، والملك الناصر محمد بن قلاوون⁽³⁾.

وكان الأمير تنكز نائب الشام⁽⁴⁾ لا يخطو بدون استشارته⁽⁵⁾. وهو شقيق محيي الدين يحيى بن فضل الله العمري، وعم شهاب الدين أحمد وبدر الدين محمد وعلاء الدين علي، وتوفي في اليوم الثاني من رمضان عام (717هـ=1317م) عن عمر أربعة وتسعين سنة⁽⁶⁾.

3. محيي الدين يحيى بن فضل الله بن مجلي بن دعجان، أبو المعالي القرشي (ت738هـ=1338م)⁽⁷⁾.

كتب السر بالشام منذ عام (661هـ=1263م) ثم انتقل إلى مصر، واستمر بالكتابة حتى عام (738هـ=1338م) حيث ضعف وكبر سنه، وطلب أن يعود إلى دمشق ليدفن بها، فتوفي قبل أن يرتحل إليها في الثامن من رمضان من نفس العام، دفن في مصر ثم نقل تابوته إلى الشام ليدفن في الصالحية، وهو والد شهاب الدين⁽⁸⁾.

(1) الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون (وُلد في القاهرة في عام 666 هـ=1268م) هو ثامن سلاطين الدولة المملوكية. السلوك، المقريري (218/2).

(2) الملك المنصور حسام الدين لاجين بن عبد الله المنصوري السلطان الحادي عشر في الدولة المملوكية. أعيان العصر، الصفدي (166/4).

(3) محمد بن قلاوون السلطان الملك الناصر ناصر الدين ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين الصالح، خاض حرباً ضد الصليبيين والمغول، تاسع سلاطين دولة المماليك البحرية. المصدر نفسه (5/73).

(4) سيف الدين أبو سعيد الأشرفي الناصري، نائب السلطنة بدمشق. المصدر نفسه (2/116).

(5) أعيان العصر، الصفدي (3/191)؛ الوافي بالوفيات (19/211-212) (24/200)؛ المنهل الصافي، ابن تغري (7/387-388-389).

(6) العبر، الذهبي (4/47).

(7) أخبار البشر، أبو الفداء (4/106)؛ تاريخ، ابن الوردي (2/280)؛ أعيان العصر، الصفدي (5/575-576).

(8) البداية والنهاية ط إحياء التراث، ابن كثير (14/164-180)؛ النجوم الزاهرة، ابن تغري (7/339). المصدر نفسه.

4. بدر الدين محمد بن محيي الدين بن فضل الله العدوي العمري (ت746هـ=1345م).
قدم القاهرة مع أبيه وأقام بها، فلما مات أبوه، عينه أخوه علاء الدين علي بن فضل الله،
-كان وقتها كاتب السر في مصر- في دار العدل، وباشر كتابة السر بدمشق سنة
(743هـ=1343م)، واستمر حتى توفي في السادس والعشرين من شهر رجب سنة
(746هـ=1345) عن عمر لم يتجاوز ستة وثلاثون عاماً.
قال عنه المقرئ "وكان ساكناً عاقلاً كثير الإطراق والصمت، محبباً إلى الناس، يخضع
له الأمراء والأكابر"⁽¹⁾.

5. علاء الدين علي بن يحيى بن فضل الله بن مجلي العدوي العمري
(ت769هـ=1368م).
تولى كتابة السر في مصر خلفاً لأخيه شهاب الدين أحمد⁽²⁾.
6. شهاب الدين أحمد بن علاء الدين علي بن يحيى بن فضل الله العمري
(ت777هـ=1376م).
تولى كتابة السر بدمشق عام (775هـ=1374م)، وتوفي بعدها بعامين عن عمر يقارب
الثلاثين عام، وهو ابن شقيق شهاب الدين⁽³⁾.
7. بدر الدين محمد بن علاء الدين علي بن يحيى بن فضل الله العدوي العمري
الشافعي (ت796هـ=1394م).
له علم وفقه وأدب، كتب الإنشاء في الديوان بديلاً عن والده في حياته الذي أعياه
المرض، وكان عمره حين بدأ الكتابة تسعة عشر عاماً، وهو ابن شقيق شهاب الدين⁽⁴⁾.

• شيوخه:

تتلمذ ابن فضل الله على يد عدد كبير من الشيوخ، وتلقى منهم شتى العلوم والمعارف،
ومن أهم شيوخه:

1. ست الوزراء بنت القاضي عمر بن أسعد بن المنجي، التتويح الدمشقيَّة الحنبلية، أم عبد
الله ويقال أم محمد، وتدعى وزيرة بنت القاضي شمس الدين عمر بن شيخ الحنابلة،
وجيه الدين، توفيت عام (716هـ=1316م)، سمع ابن فضل الله منها الحديث، وهي

(1) المقفى الكبير (7/ 239).

(2) النجوم الزاهرة، ابن تغري (7/ 339)؛ المنهل الصافي (2/ 39).

(3) نيل الأمل، زين الدين الملطي (2/ 97).

(4) المقفى الكبير، المقرئ (6/ 207).

شيخة متدينة زاهدة حسنة الأخلاق، روت الكثير من الأحاديث، عاشت اثنان وتسعون عاماً، ولها مشيخة على الذهبي وقرأ عليها مسند الشافعي والصحيح، وترجم -الذهبي- لها في شيوخه، حجت مرتين، وتزوجت بأربعة رجال، ذاع سيطها حتى طلبت إلى مصر وسمع منها الأمير سيف الدين أرغون، والقاضي كريم الدين الكبير وكثير من مشاهير العلماء⁽¹⁾.

2. ست القضاة، أم محمد بنت القاضي محيي الدين بن القاضي تاج الدين أحمد الشيرازي، عاشت ما يقارب التسعين عاماً، وتوفيت عام (712هـ=1312م)، سمع ابن فضل الله منها الحديث، روت عن كريمة بنت عبد الوهاب وابن الأزهر البلخي، وسمعت من جدها أبي نصر، تزوجت بالشيخ مجد الدين الروذراوري، ثم بالبدر بن الخرقى، ثم ابن عبيد⁽²⁾.
3. علاء الدين الوداعي، علي بن المظفر بن إبراهيم بن عمر بن زيد، علاء الدين الكندي المعروف بالوداعي نسبة إلى الوزير الدمشقي ابن وداعة الحلبي، من أهل الإسكندرية وأقام في دمشق، توفي سنة (716هـ=1316م).

أديب ومقرئ ومحدث وكاتب، تلا القرآن بالروايات السبع على القاسم الأندلسي، ودرس الحديث، وسمع من الخشوعي والكفرطابي والصدر والبكري وعثمان ابن خطيب، درس الأدب العربي وحفظ كثير من أشعار العرب، كان كاتباً في ديوان دمشق، متشيع دون سبٍ للصحابية، تعلم ابن فضل الله الأدب على يديه⁽³⁾.

4. عماد الدين الجرائدي، محمد بن يعقوب بن بدران بن منصور المقرئ المسند ابن شيخ القراء تقي الدين ابن الجرائدي الدمشقي المولد، المصري الدار، قدم الشام سنة (707هـ=1308م)، سكن في القدس ثماني سنين، وبها توفي سنة (720هـ=1320م)، كان حافظاً للقصيدة، له مشاركة في النحو والفرائض، سمع منه ابن فضل الله وكانت له مشيخة عليه⁽⁴⁾.

5. شمس الدين محمد بن حسن بن سباع ابن أبي بكر الجزامي، مصري الأصل دمشقي المولد المعروف بابن الصائغ، المتوفي في دمشق عام (720هـ=1320م).

(1) سير أعلام النبلاء ط الحديث، الذهبي (8/ 262)؛ أعيان العصر، الصفدي (2/ 399).

(2) معجم الشيوخ، الذهبي (1/ 192)؛ أعيان العصر، الصفدي (2/ 400).

(3) أعيان العصر، الصفدي (3/ 545)؛ فوات الوفيات، الكتبي ابن شاكر (3/ 99-98)؛ النجوم الزاهرة، ابن تغري (9/ 235) الدرر الكامنة، ابن حجر (4/ 154).

(4) معجم الشيوخ، الذهبي (2/ 303)؛ الوافي بالوفيات، الصفدي (5/ 146) تاريخ مصر والقاهرة، السيوطي

(1/ 504)؛ شذرات الذهب، ابن العماد (7/ 711).

- إمام علامة في النحو واللغة أديباً فاضلاً في الأدب، وله نظم ونثر، شرح "مقصورة ابن دريد" في مجلدين. واختصر "صاحح الجوهرى"، بلغت مصنفاته في أصول الدين مائة مصنف، لقّن ابن فضل الله علم الأدب وأقرأه العروض⁽¹⁾.
6. شهاب الدين محمود بن سلمان بن فهد بن محمود الحلبي، أديب عمل بدواوين الإنشاء بالشام ومصر نحو خمسين عاماً، توفي بدمشق سنة (725 هـ = 1325 م)، له نظم حسن ومعرفة بالتراجم وخطوط الكتاب، محباً للخير، ذو دين متين، قصائده كثيرة دونت في ثلاثة مجلدات، تلقى ابن فضل الله الأدب منه وقرأ جملة من الدواوين عليه⁽²⁾.
7. كمال الدين بن قاضي شهاب، عبد الوهاب بن محمد ابن عبد الوهاب بن ذؤيب الأسدي، عالم نحوي، وفقه شافعي. كانت له حلقة بالجامع الأموي، أفنى عمره في التدريس، متقل من الدنيا ولم يتزوج، توفي سنة (726 هـ = 1326 م)، درّس ابن فضل الله اللغة العربية⁽³⁾.
8. شمس الدين أبو عبد الله الحنبلي محمد بن مسلم بن مالك بن مزروع الزيني ثم الدمشقي الصالحي. نشأ يتيماً منذ أن كان في السادسة من عمره، تعلم الخياطة، وحفظ القرآن وبرع في الفقه والعربية، سمع من مائتين وعشرة من الشيوخ، وتقل في طلب العلم بين مكة والمدينة والقدس ونابلس وبعليك، كان متواضعاً متقللاً من الدنيا وملابسه بسيطة، عُيّن على القضاء فرفض، إلى أن كلمه ابن تيمية، فاستجاب له بشرط أن لا يركب بموكب ولا يغير لباسه، واستمر في منصبه إحدى عشرة سنة، وشهد له بالعدل والإنصاف، وقف مع ابن تيمية في محنته وسجنه، فأوذي من قبل السلطان، كان عالماً مجاهداً، شارك في عدة معارك وفتوحات، منها طرابلس وعكا وقلعة الروم، حج أربع مرات، وتوفي في الأخيرة عام (726 هـ = 1326 م)، ودفن في البقيع بجوار قبر عقيل بن أبي طالب، لقّن ابن فضل الله العربية حتى أتقنها على يديه⁽⁴⁾.

(1) النجوم الزاهرة، ابن تغري (9/ 248)؛ تاج التراجم، ابن قطلوبغا (ص: 258)؛ شذرات الذهب، ابن العماد (8/ 98).

(2) الدرر الكامنة، الصفدي (6/ 82)؛ البداية والنهاية ط إحياء التراث، ابن كثير (13/ 381).

(3) أعيان العصر، الصفدي (3/ 205)؛ طبقات الشافعية، السبكي (10/ 124)؛ البداية والنهاية ط إحياء التراث، ابن كثير (14/ 146).

(4) تنقيح التحقيق، ابن عبد الهادي (المقدمة/ 97)؛ نهاية الأرب، النووي (33/ 164)؛ تاريخ المدارس، النعمي (2/ 30).

9. كمال الدين محمد بن علي بن عبد الواحد، الزمكاني الأنصاري الدمشقي الشافعي، شيخ علامة على المذهب الشافعي، أفتى وُسْمِيَّ بالشيخ بعمر العشرين عام، وُلِّيَ القضاء في آخر عمره على حلب، قرأ عليه ابن فضل الله العروض⁽¹⁾.
10. تقي الدين ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، شيخ الإسلام أبو العباس بن أبي المحاسن شهاب الدين بن أبي البركات مجد الدين الحراني الدمشقي، الحنبلي. أقبل ونبغ في العلم منذ صغره، وأفتى وهو دون العشرين من العمر، وتولى مهام والده بعد وفاته وهو في سن قريب من العشرين عام، وكان إماماً متبحراً في الفقه والعقيدة والفلسفة، مؤلفاته تزيد عن ثلاثمئة، شجاع لا يخشى لومة لائم، متجرباً من الدنيا معرضاً عن شهواتها، لم يتزوج وكان بسيط الملابس، توفي عام (728هـ=1328م)، مسجوناً في قلعة دمشق، تتلمذ ابن فضل الله على يديه وقرأ عنه كتاب الأحكام الصغرى⁽²⁾.
11. يحيى بن فضل الله بن مجلى بن دعجان العمري، القاضي محي الدين كاتب السر بالقاهرة ودمشق، توفي سنة (738=1338م)⁽³⁾.
12. إبراهيم بن عبد الرحمن بن سباع بن ضياء، ابن الفركاح الشافعي المذهب، اشتهر بالورع والتواضع والصفات الحميدة، تقلد الخطابة في دمشق وعزل نفسه، وامتنع عن تولي القضاء رغم الإلحاح عليه، وعمل مدرساً، وله كتابات في التاريخ، لقب بابن الفركاح بسبب عيب خلقي في ساقه، توفي (729هـ=1329م)، تلقى ابن فضل الله منه الفقه⁽⁴⁾.
13. أثير الدين أبو حيان الغرناطي، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان. ارتحل من الأندلس إلى إفريقيا ثم الاسكندرية، ومن مصر إلى الحجاز، عالم باللغة والتفسير والحديث والتراجم والتاريخ، توفي بمصر عام (745هـ=1344م)، قرأ عليه ابن فضل الله في مصر العديد من كتب الأدب⁽⁵⁾.
14. شمس الدين أبو الثناء الأصفهاني، محمود بن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن علي، ولد في أصبهان وانتقل إلى دمشق، أثنى عليه ابن تيمية بثناء حسن،

(1) أعيان العصر، الصفدي (4/ 629-624)؛ طبقات الشافعية، السبكي (9/ 190)؛ البداية والنهاية ط إحياء التراث، ابن كثير (14/ 151)؛ العقد المذهب، ابن الملقن (ص: 421)

(2) معجم الشيوخ، الذهبي (1/ 56)؛ الوافي بالوفيات، الصفدي (11/ 1-12-13)؛ طبقات الحنابلة، ابن رجب (4/ 493)؛ الدرر الكامنة، ابن حجر (1/ 168).

(3) الدرر الكامنة، ابن حجر (6/ 192).

(4) شذرات الذهب، ابن العماد (7/ 721).

(5) فوات الوفيات، ابن شاكر (4/ 72)؛ أعيان العصر، الصفدي (2/ 473).

ودرس بالجامع الأموي في دمشق، متواضع بعيد عن التكلف، قوي الذاكرة، قص على ابن فضل الله جزء من تاريخ المغول، وتوفي بالطاعون عام (749هـ=1348م)⁽¹⁾.

• وفاته:

توفي ابن فضل الله العمري يوم عرفة، التاسع من ذي الحجة من العام (749هـ=1348م)، بعد أن عاد من القدس إلى دمشق بأيام قليلة، وذكر ابن حجر العسقلاني في كتابه الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة أنه مات بحمى أصابته، وذكر آخرون -منهم ابن العماد الحنبلي- أنه مات بالطاعون، ودفن في مقبرة الصالحية، على سفح جبل قاسيون⁽²⁾.

(1) الدرر الكامنة، ابن حجر (6/ 85).

(2) المصدر نفسه (1/ 395)؛ الملطي، نيل الأمل (1/ 179).

المبحث الثاني:

1. أهم مؤلفات ابن فضل الله العمري:

- 1- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار:
من أهم المؤلفات التي كتبت في العصر المملوكي، وهو موسوعة ضخمة تجمع الجغرافيا والتاريخ والاجتماع، تعطي القارئ صورة حضارية عن عصر ابن فضل الله والعصور التي سبقتها، أثنى عليه العلماء والمؤرخين؛ قال الصفدي " وهو كتاب حافل، ما أعلم أن لأحد مثله"(1)، وقال المقرئ " مسالك الأبصار في عشرة أسفار كبار، لم يسبق لمثله"(2)، نقل عنه ابن خلدون تاريخ المغول، وصرح بذلك في كتابه تاريخ ابن خلدون(3)، وسيتم تناول الكتاب بالتفصيل لاحقاً.
- 2- فواضل السمر في فضائل آل عمر:
كتاب من أربع مجلدات يتحدث فيه عن آل عمر بن الخطاب حتى عصره، ويشمل الفضائل والمناقب وأعلام عائلته ورجالها، وهو كتاب مفقود(4).
- 3- ممالك عبّاد الصليب(5):
شرح لممالك النصرانية المسيحية في فرنسا وألمانيا والبندقية وإيطاليا، والأحوال الاجتماعية والثقافية والسياسية(6).
- 4- الدعوة المستجابة في مُجلد(7):
- 5- صباية المشتاق:
- ديوان في مدح النبي صلى الله عليه وسلم(8).
- 6- سفرة السفرة، سفرة السافر ويقظة المسافر(9).

(1) فوات الوفيات (1 / 160).

(2) المقفى الكبير (1 / 450).

(3) (593/5).

(4) فوات الوفيات، الكتبي ابن شاکر (1 / 160)؛ المقفى الكبير، المقرئ (1 / 450)؛ طبقات الشافعية، ابن قاضي شهبة (3 / 17)؛ النجوم الزاهرة، ابن تغري (10 / 235).

(5) المقفى الكبير، المقرئ (1 / 450).

(6) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (15 / 6).

(7) فوات الوفيات، الكتبي ابن شاکر (1 / 160)؛ المقفى الكبير، المقرئ (1 / 450).

(8) فوات الوفيات، الكتبي ابن شاکر (1 / 160)؛ المقفى الكبير، المقرئ (1 / 450)؛ طبقات الشافعية، ابن قاضي شهبة (3 / 17)؛ النجوم الزاهرة، ابن تغري (10 / 235).

(9) فوات الوفيات، الكتبي ابن شاکر (1 / 160)؛ المقفى الكبير، المقرئ (1 / 450).

- 7- دمة الباكي ويقظة الساهي أو [الساھر]، مجموعتين من الشعر والأدب⁽¹⁾.
- 8- نفحة الروض، وهو في الأدب⁽²⁾.
- 9- التعريف بالمصطلح الشريف:
- كتاب وضع فيه ابن فضل الله العمري الأسس المعمول بها في ديوان الإنشاء، شرح فيه طرق المكاتبات والعهود ومراكز البريد والمراسلات، وهو بالمصطلح المعاصر كتاب لشرح البروتوكولات المستخدمة في العلاقات الدبلوماسية، وأصبح دليلاً ثابتاً يقتدى به لمن بعده، وصفه القلقشندي بأنه "هو أنفس الكتب المصنّفة في هذا الباب"⁽³⁾، وأطلق عليه لقب "الدستور"⁽⁴⁾.⁽⁵⁾
- 10- الشتويات: مجموعة رسائل كتبها في فصل الشتاء⁽⁶⁾.
- 11- النُبذة الكافية في معرفة الكتابة والقافية⁽⁷⁾.
- 12- الدرر القرائد:
- وهو مختصر "قلائد العقيان في محاسن الأعيان لأبي نصر الفتح ابن خاقان" وهو لأعلام الناس في القضاء والوزارة والأدب والشعر من المغرب الإسلامي⁽⁸⁾.
- 13- الدائرة بين مكة والبلاد⁽⁹⁾.
- 14- ذهبيّة العصر:
- ترجم فيه لمشاهير المائة الثامنة من معاصريه، وذكر أشعارهم وأخبارهم، نقل عنه ابن حجر العسقلاني الكثير من التراجم في كتابه الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة⁽¹⁰⁾.
- 15- الجواهر الملتقطة: ذكره القلقشندي في "صبح الأعشى":
- مراسلات من إنشاء ابن فضل الله⁽¹¹⁾.

(1) فوات الوفيات، الكتبي ابن شاکر (1/ 160)؛ المقفّی الکبیر، المقريزي (1/ 450)؛ طبقات الشافعية، ابن قاضي شہبة (3/ 17).

(2) فوات الوفيات، الكتبي ابن شاکر (1/ 160)؛ النجوم الزاهرة، ابن تغري (10/ 235).

(3) صبح الأعشى (1/ 32).

(4) المصدر نفسه.

(5) المقفّی الکبیر، المقريزي (1/ 450)؛ طبقات الشافعية، ابن قاضي شہبة (3/ 17).

(6) المقفّی الکبیر، المقريزي (1/ 450).

(7) المصدر نفسه.

(8) المصدر نفسه.

(9) المصدر نفسه.

(10) الدرر الكامنة، ابن حجر (2/ 108).

(11) صبح الأعشى، القلقشندي (9/ 329).

2. التعريف بكتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار:

أهم مؤلفات ابن فضل الله العمري، ومن أهم المؤلفات التي كتبت في العصر المملوكي، وهو موسوعة ضخمة تجمع الجغرافيا والتاريخ والاجتماع، تعطي القارئ صورة حضارية عن حضارات ودول وممالك قامت ثم اندثرت، أرخ لحكام بني اسرائيل وملوكهم، وأنبياء الله زكريا وعيسى بن مريم عليهما السلام، وسجل فيه تراث الأمة الإسلامية على مدى سبعمائة عام ويزيد، وترجم لرجالها وعلمائها من الفقهاء والقراء والمحدثين والفلاسفة والأطباء والمؤرخين والشعراء والأدباء والمغنين، وتحدث عن البلدان وعادات الشعوب والأديان والنحل والفرق الإسلامية وغير الإسلامية.

أثنى عليه العلماء والمؤرخين؛ قال الصفدي "وهو كتاب حافل، ما أعلم أن لأحد مثله"⁽¹⁾، وقال المقرئ "مسالك الأبصار في عشرة أسفار كبار، لم يسبق لمثله"⁽²⁾.

ألفه عام (738هـ=1338م)⁽³⁾، أي أثناء عزله عن كتابة السر، قبل وفاته بأحد عشرة سنة، وقد ذكر ابن حجر العسقلاني وابن تغري بردي أنه في أزيد من عشرين مجلد، وذكر ابن العماد الحنبلي أنه في سبعة وعشرين مجلد، وورد بموسوعة العلوم الإسلامية أنه اثنتين وثلاثين جزءاً، وقسم فؤاد سزكين⁽⁴⁾ المخطوط إلى سبع وعشرين سفراً⁽⁵⁾.

وقد بين ابن فضل الله سبب تأليف الكتاب في مقدمته، فقال أنه اطلع على الكتب الموسوعة في الجغرافيا والأرض، وأحوال الأمم وملوكها ومجتمعاتها ومعاملاتها، فلم يجدها سوى أخبار قديمة ومصطلحات انتهت بانتهاؤها، ولم يبق منها إفادة للقارئ، فقرر أن يكتب ليقترب الصورة الصحيحة الموافقة للغة العصر، "لأقرب إلى الأفهام البعيدة غالب ما هي عليه أم كل مملكة من المصطلح والمعاملات... وبينته بالتصوير: ليُعرف كيف هو، كأنه قدام عيونهم بالمشاهدة والعيان"⁽⁶⁾.

(1) الوافي بالوفيات (8/ 164).

(2) المقفى الكبير (1/ 450).

(3) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (3/ 464).

(4) تخصص في التراث العلمي العربي والإسلامي، هو باحث تركي، كان المدير الفخري لمعهد دراسات التاريخ والعلوم الإسلامية والعربية في جامعة غوته في فرانكفورت والذي كان أحد مؤسسيه (1924 - 2018م).

(5) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (3/ 7).

(6) المصدر نفسه (108/1) ط العلمية.

والكتاب حسب تقسيم المؤلف مكون من سبع وعشرين سفرًا، ومنه عدة نسخ، وهي نسخة أيا صوفيا وتتكون من سبع وعشرين سفرًا، ونسخة طوب قابو سراي، وتتكون من سبعة عشر سفرًا، والسلسلة الأيوبية تتألف من ثلاث وعشرين سفرًا، وسلسلة أبي جرادة تتكون من سبع وعشرين سفرًا⁽¹⁾.

يُعتقد بأن النسخة الأصلية من الكتاب هي نسخة أية صوفيا حيث توجد ملاحظة على ظهر الكتاب تفيد بأنها قرأت على المؤلف⁽²⁾.

3. تقسيم الكتاب:

1- الجزء الأول: (المسالك والآثار والأقاليم)

قُسِّمَ هذا الجزء إلى قسمين؛ تحدث في القسم الأول عن جغرافيا الأرض برًا وبحرًا، والأماكن والمباني وبيوت النبي صلى الله عليه وسلم والمساجد والحانات، وفي القسم الثاني تحدث عن الأقاليم السبعة وتقسيماتها⁽³⁾.

2- الجزء الثاني: (تتمة الأقاليم، البحار، القبلة، والطرق)

وفيه شرح باقي الأقاليم السبعة، والمشهور من الممالك الصليبية، والطرق وخطوط المواصلات، وذكر الحوادث والظواهر الطبيعية من كسوف وخسوف وغيرها، والقبلة وكيفية تحديدها وأقوال الفقهاء فيها⁽⁴⁾.

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (1/ 75) ط العلمية.

(2) المصدر نفسه. (1/ 82).

(3) المصدر نفسه. (1/ 113).

(4) المصدر نفسه. (1/ 114).

3- الجزء الثالث: (ممالك الشرق الإسلامي والترك ومصر وبلاد الشام والحجاز)

ذكر فيه ممالك الهند والسند، ومملكة جنكيز خان وأقسامها الأربعة (الصين والخطا، التورانين في ما وراء النهر وفي خوارزم والقباقي، والاييرانيين)⁽¹⁾، ومملكة الجبل، ومملكة الجبال، ومملكة الأتراك بالروم وهم ستة عشر مملكة⁽²⁾، ومملكة مصر والحجاز والشام⁽³⁾.

4- الجزء الرابع: (تتمة الممالك)

ذكر فيه مملكة اليمن ومُلك المسلمين في الحبشة، والسودان ومالي وجبال البربر ومملكة إفريقيا، وبر العدو، ومملكة الأندلس، وقبائل العرب⁽⁴⁾.

وقد بدأ كتابه هذا في سنة (738هـ=1338م)، واستمر به حتى سنة وفاته ولم يكمله، واعتمد العديد من المصادر مثل "المغرب في حلى المغرب" لابن سعيد المغربي (685هـ=1286م)⁽⁵⁾، كما اعتمد على المصادر الشفوية ونقل عن رجال زاروا تلك الممالك، أو أقاموا فيها، أو خدموا لدى سلاطينها⁽⁶⁾.

5- الجزء الخامس: (القراء والمحدثون)، (في الإنصاف بين المشرق والمغرب على حكم

(التحقيق)

تراجم وتاريخ مشاهير القراء والمحدثين والفقهاء⁽⁷⁾، وفيه يعرض فضل المشرق على المغرب، وذكر اليونان والرومان والهنود والفرس قبل الإسلام، ثم يعرض الحضارة الإسلامية في المشرق والمغرب، ويعرج على إدارة الحكام والملوك، ويظهر بكل وضوح تفضيله المشرق على

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (3/ 32).

(2) المصدر نفسه. (3/ 34).

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه (3/ 35).

(5) ابن سعيد المغربي (685 هـ = 1286 م) علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك ابن سعيد، أبو الحسن، نور الدين، من ذرية عمار بن ياسر: مؤرخ أندلسي، من الشعراء، العلماء بالأدب. فوات الوفيات، الكتبي ابن شاعر (103/3).

(6) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (4/ 5).

(7) المصدر نفسه (3/ 5) ط العلمية

المغرب سواء قبل الإسلام أو بعده، وبرر ذلك بأن المشرق أهل العلم والطب والأنبياء والفضلاء والشعراء، ومكة والمدينة وبيت المقدس التي لا تشد الرحال إلا إليها⁽¹⁾.

6- الجزء السادس: (طبقات الفقهاء وأصحاب المذاهب الإسلامية)

تحدث فيه عن طبقات الفقهاء الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة والظاهرية في المشرق والمغرب⁽²⁾.

7- الجزء السابع: (أصحاب النحو واللغة والبيان)

تراجم مشاهير النحو واللغة في مصر والمشرق والمغرب⁽³⁾.

8- الجزء الثامن: (مشاهير الفقهاء والصوفية)

تناول في هذا الجزء تراجم للفقهاء والصوفية⁽⁴⁾.

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (5/ 10).

(2) المصدر نفسه (6/ 3) ط العلمية

(3) المصدر نفسه (7/ 3).

(4) المصدر نفسه (8/ 3).

9- الجزء التاسع: (مشاهير الحكماء والأطباء والفلاسفة)

تراجم ما يزيد عن مائة واثنين وتسعين من الحكماء والفلاسفة والأطباء، معتمداً على كتاب "عيون الأنباء في طبقات الأطباء" لابن أبي أصيبعة⁽¹⁾، نقل منه نصاً، واختصاراً، واعتمد على كتاب "الوافي بالوفيات" للصفدي⁽²⁾، ولم يقتصر على الأطباء المسلمين، وترجم لمشاهير الأطباء العجم⁽³⁾.

10- الجزء العاشر: (أصحاب الموسيقى والغناء)

وفيه تراجم المغنين والمغنيات، وما يتعلق بذلك من شعر وأخبار وأحاديث مجالس الطرب، ويظهر صورة من صور الحضارة الإسلامية، وقد جمع فيه من الأشعار والأخبار وتراجم المغنين والمغنيات والشعراء والخلفاء والأمراء والوزراء، ويظهر هذا الجزء صورة الحياة الاجتماعية في العصر العباسي في جانبها الفني المنصرف إلى الغناء والموسيقى ومجالس الأئس والطرب⁽⁴⁾.

11- الجزء الحادي عشر: (مشاهير الوزراء)

تناول فيه تراجم عدد كبير من الوزراء، معتمداً على كتاب الجهشيارى⁽⁵⁾ "الوزراء والكتاب"⁽⁶⁾.

(1) ابن أبي أصيبعة (ت 668 هـ = 1270م) أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي موفق الدين، أبو العباس ابن أبي أصيبعة: الطبيب المؤرخ كان مقامه في دمشق، وفيها صنف كتابه سنة (643 هـ = 1246م). النجوم الزاهرة، ابن تغري (229/7).

(2) صلاح الدين الصفدي (ت 764 هـ = 1276م) خليل بن أبيك بن عبد الله الصفدي، صلاح الدين: أديب، مؤرخ، ولد في صفد (بفلسطين) وإليها نسبته، وتعلم في دمشق وتراجم الأعيان، وتولى ديوان الإنشاء في صفد ومصر وحلب، ثم وكالة بيت المال في دمشق، فتوفي فيها، له زهاء مئتي مصنف. طبقات الشافعية، السبكي (5/10).

(3) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (3 / 9) ط العلمية

(4) المصدر نفسه (10 / 13).

(5) ابن عبدوس الجَهْشِيَارِي (ت 331 هـ) محمد بن عبدوس بن عبد الله الكوفي الجهشيارى، أبو عبد الله، مؤرخ من أهل الكوفة. نشأ مع أبيه في بغداد، وكان أبوه حاجباً للوزير علي بن عيسى، فخلفه على الحجابة له، ثم للوزير حامد بن العباس في خلافة المقتدر بالله. تاريخ الإسلام، الذهبي (8/25).

(6) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (3 / 11) ط العلمية.

12- الجزء الثاني عشر: (كتاب الإنشاء المشاركة)

تعريف بالإنشاء والكتابة، وتحدث عن كتاب الدواوين منذ العصر العباسي حتى عصره، وقد اقتصر على كتاب الدواوين المشاركة⁽¹⁾.

13- الجزء الثالث عشر: (كتاب الإنشاء المغاربة والخطباء)

اختص بكتاب الإنشاء المغاربة، معتمداً على كتاب "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام"⁽²⁾، و"قلائد العقيان لابن خاقان"⁽³⁾، وتحدث عن الخطابة قبل الإسلام، ثم الخطابة في المشرق والمغرب⁽⁴⁾.

14- الجزء الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر (شعراء العصر

الجاهلي والأموي والعباسي)

تناول فيهم تراجم شعراء العصر الجاهلي والأموي والعباسي⁽⁵⁾.

15- الجزء الثامن عشر والتاسع عشر: (شعراء مصر)

تراجم لشعراء مصر، اعتمد فيه على كتاب "المرقصات والمطربات" لابن سعيد المغربي⁽⁶⁾.

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (5/12).

(2) ابن بسام (ت 542 هـ=1148م) علي بن بسام الشنتريني الأندلسي، أبو الحسن: أديب، من الكتاب الوزراء. نسبته إلى شنترين. حلى المغرب، ابن سعيد المغربي (417/1).

(3) الفتح بن خاقان، أبو محمد (ت247هـ=861م) الفتح بن خاقان بن أحمد بن غرطوج، أبو محمد: أديب، شاعر، فصيح، فارسي الأصل، من أبناء الملوك. اتخذ المتوكل العباسي أخا له، واستوزره وجعل له إمارة الشام. معجم الأدباء، ياقوت الحموي (2163/5).

(4) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (3/13) ط العلمية.

(5) المصدر نفسه (3/14-15-16-17).

(6) المصدر نفسه (3/18). ط العلمية.

16- الجزء العشرون: (الحيوان والنبات)

خصصه لدراسة الحيوان والنبات، واعتمد في تأليفه على كتاب ابن بيطار⁽¹⁾ "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية"، وكتاب أبي بكر القزويني "عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات"⁽²⁾.

17- الجزء الحادي والعشرون والثاني والعشرون: (الأعشاب والنجوم والمعادن والأحجار)

خصص هذا الجزء لأنواع النباتات والمعادن والأحجار التي وجدت على الأرض، من حيث أسمائها وصفاتها وأماكن وجودها وخواصها، واعتمد في تأليفه على كتاب ابن بيطار "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية"، وكتاب أبي بكر القزويني "عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات"، ورتب كل ما انتقاه من مواد نباتية أو أحجار على حروف الهجاء، كما أنه اختصر المادة التي انتقاه، غير ملزم نفسه بضوابط محددة⁽³⁾.

18- الجزء الثالث والعشرون: الأديان والمذاهب -مبدأ العالم ونشوء الخليقة- السيرة

النبوية - آل أبي طالب والخلفاء الراشدين.

خصصه للأديان والمذاهب، ومبدأ العالم ونشوء الخليقة، والسيرة النبوية، وآل أبي طالب والخلفاء الراشدين.

اعتمد على كتاب "الفصل في الملل والنحل" لابن حزم⁽⁴⁾، وكتاب "السيرة النبوية" لابن هشام الحميري⁽¹⁾، وكتاب "الوفا بأحوال المصطفى" لابن الجوزي⁽²⁾، و"كنوز المطالب في فضائل آل أبي طالب" لابن سعيد المغربي⁽³⁾.

(1) ضياء الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد الأندلسي المالقي المعروف بابن البيطار إمام النباتيين وعلماء الاعشاب (646هـ=1249م). فوات الوفيات، الكتبي ابن شاعر (160/2).

(2) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (3 / 20) ط العلمية.

(3) المصدر نفسه (5 / 22).

(4) ابن حزم الأندلسي (ت456هـ=1064م) علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، الأندلسي، الظاهري، شاعر وكاتب وفيلسوف وفقه، وكان يلقب القرطبي إشارة إلى مولده ونشأته. نفح الطيب، التلمساني (1/364).

19- الجزء الرابع والعشرون: (دولة الحسينيين والحسينيين-الدولة العباسية-الدولة

الأموية-الدولة الأموية في الأندلس حتى 132هـ)

اختص هذا الجزء بتاريخ الدول العربية الإسلامية، من بني هاشم وبني أمية في الشام والعراق ومصر والأندلس، ودرس فيه التاريخ السياسي والإداري والحضاري، وعوامل التقدم والتراجع والانهييار⁽⁴⁾.

بدأ بدول العلويين وثورة الزنج⁽⁵⁾ والقرامطة⁽⁶⁾ على اعتبار أن صانعيها ينتمون للعلوية، ثم الدولة العباسية وقدمها على الدولة الأموية، وذكر تراجم لخلفاء وأمراء وملوك هذه الدول⁽⁷⁾.

(1) ابن هشام (ت 213 هـ=828م) عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين: مؤرخ، كان عالماً بالأنساب واللغة وأخبار العرب، ولد ونشأ في البصرة، وتوفي بمصر. الأعلام، الزركشي (166/4).

(2) ابن الجوزي، أبو الفرج (ت 597 هـ=1201م) المحدث، المؤرخ، شيخ الإسلام عالم العراق، كتب بخطه كثيراً من كتبه إلى أن مات. له صيت بعيد في الوعظ، يحضر مجالسه الملوك، والوزراء وبعض الخلفاء، والأئمة والكبراء، وقيل إنه حضر في بعض مجالسه مائة ألف. شذرات الذهب، ابن العماد (47/1).

(3) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (23/5). ط العلمية.

(4) المصدر نفسه (24/5).

(5) ثورة الزنج (255 - 270 هـ=869-884م) ثورة على الخلافة العباسية تمركزت حول مدينة البصرة، جنوب العراق اليوم، وامتدت لأكثر من 14 عاماً، ويعتقد أن الحركة بدأت بزنج من شرق أفريقيا استعبدوا وجيء بهم إلى تلك المنطقة، وأسسوا حكومة لهم كان مقرها مدينة المختارة (جنوب البصرة). تاريخ الخلفاء، السيوطي (ص 264).

(6) هم فرقة إسماعيلية أقامت دولة إثر ثورة ضد الدولة العباسية، وانشقت من باقي الشيعة الإسماعيلية، أنشأ

القرامطة دولتهم في البحرين. المسالك والممالك، البكري (372/1).

(7) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (24/3). ط العلمية.

20- الجزء الخامس والعشرون: (الحكام والملوك قبل الإسلام - حوادث تاريخ الإسلام من

1 - 160هـ)

أرخ فيه للحكام والملوك قبل الإسلام، فذكر حكام بني إسرائيل، وأنبياء الله، زكريا وعيسى ابن مريم عليهما السلام، وخراب بيت المقدس، وملوك الهند والصين والترك، والفرس واليونان والسريران، وملوك السودان، وملوك قحطان والحيرة، وحروب القبائل العربية، وبدأ بالدولة الإسلامية منذ التأسيس إلى عام (160هـ=777م)⁽¹⁾.

21- الجزء السادس والعشرون: (حوادث تاريخ الإسلام من 161 - 540 هـ)

في تاريخ البرامكة⁽²⁾، ودولة بني زياد⁽³⁾، والقرامطة، والدولة الفاطمية⁽⁴⁾، وملك بني بويه⁽⁵⁾، والسلاجقة⁽⁶⁾، والمرابطين⁽¹⁾، والموحدين⁽²⁾، واعتمد على تاريخ أبي الفداء⁽³⁾.⁽⁴⁾

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (3/25).

(2) البرامكة أسرة يعود أصلها إلى مدينة بلخ، كانوا في الأصل مجوساً ثم دخلوا الإسلام، وهم من الذين ترعّموا الحراك العباسي في خراسان، حيث كان خالد بن برمك من كبار الدعاة إلى الخلافة العباسية في بلاده، وقد اصطفاه الخليفة العباسي أبو العباس السفاح ليكون وزيراً له، كانت نهايتهم في عهد الخليفة هارون الرشيد الذي قضى عليهم فيما يُسمى نكبة البرامكة، انتهت النكبة بقتل جعفر بن يحيى وسجن البرامكة عام (187هـ=803م). وفيات الأعيان، ابن خالكان (333/1).

(3) بنو زياد دولة حكمت اليمن في الفترة (203 - 409 هـ=819-1019م)، انتهت على يد نجاح وهو مملوك حبشي الذي أسس على أنقاضها دولة بني نجاح (سنة 412هـ=1021م). المصدر نفسه (52/2).

(4) الدولة الفاطمية، اتخذت من المذهب الشيعي (الإسماعيلي) مذهباً رسمياً لها. قامت هذه الدولة بعد أن نشط الدعاة الإسماعيليون في إذكاء الجذوة الحسينية ودعوة الناس إلى القتال باسم الإمام المهدي المنتظر، امتد نطاقها من بلاد المغرب إلى مصر، وضموا جزيرة صقلية، والشّام، والحجاز، فأصبحت أكبر دولة استقلت عن الدولة العباسية. المصدر نفسه (192/1).

(5) البويهيون، بنو بويه: سلالة من الديلم حكمت في غرب إيران والعراق سنوات (320-454هـ=932-1062م) ويرجع نسبهم إلى ملوك الساسانية. استمدوا اسمهم من أبو شجاع بويه، أعطاهم عليهم الخليفة العباسي ألقاب السلطنة. المصدر نفسه (405/1).

(6) دولة السلاجقة، واحدة من الدول الكبرى في الإسلام، لعبت دوراً كبيراً في تاريخ الدولة العباسية والحروب الصليبية، تأسست الدولة على يد سلالة السلاجقة، التي تنتمي بدورها إلى مجموعة أتراك الأوغوز. حكمت إيران وأفغانستان ووسط آسيا وصولاً إلى كاشغر في الشرق، فضلاً عن العراق والشام والأناضول غرباً وصولاً إلى مشارف القسطنطينية. قامت الدولة منذ (429-552 هـ=1038-1157م). المصدر نفسه.

22- الجزء السابع والعشرون: (حوادث تاريخ الإسلام من 541 - 744 هـ)

أرخ فيه الأحداث من عام (541-744هـ=1147-1344م)، اعتمد في هذا الجزء على تاريخ أبي الفداء "المختصر في أخبار البشر" ويشرح الدول في ذلك العصر، نشوئها وتطورها واضمحلالها، كما نقل عن الذهبي تاريخ السنوات (693- 744 هـ=1294-1344م)، وترجم فيه لوالده وعمه شرف الدين عبد الوهاب⁽⁵⁾.

وقد اعتمدت في دراستي هذه على نسخة المجمع الثقافي، أبو ظبي تحقيق عبد الله بن يحيى السريحى، الطبعة الأولى عام 1423هـ.

(1) هي دولة إسلامية ظهرت خلال القرن الخامس والسادس الهجري في منطقة المغرب الإسلامي، انبثقت من حركة دعوية إصلاحية إسلامية مبنية على اعتقاد مالكي سني، وسيطرة على المغرب والأندلس. وفيات الأعيان، ابن خالكان (129/7).

(2) دولة إسلامية، نشأت في المغرب الإسلامي بعد انتهاء الحكم المرابطي، إدعى مؤسسها محمد بن تومرت أنه المهدي، حكمت المغرب والأندلس (514-667هـ=1120-1269م). وفيات الأعيان، ابن خالكان (237/3).

(3) أبو الفداء (672 - 732 هـ=1274-1332م) إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد، صاحب حماة، مؤرخ جغرافي. طبقات الشافعية، السبكي (403/9).

(4) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (26/3) ط العلمية.

(5) المصدر نفسه (27/5-6-9-10).

4. منهج ابن فضل الله في تأليف كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار:

استخدم ابن فضل الله ثلاثة من أساليب البحث التاريخي، (الرؤيا والمشاهدة، السماع من الشهود، النقل عن المتون)، ما أكسب موسوعته قوة ومصداقية وزخم في الأحداث والتواريخ والوقائع، وتميز عن مؤرخي عصره بكتابته التاريخ الحضاري للأمم، فيستعرض أزياء الشعوب وطعامهم، وأسواقهم ومكاييلهم، والزراعة والمحاصيل، والبيوت والبناء والهندسة، والجيوش؛ وحداتها وأسلحتها ومقدراتها، وأوامر السلاطين ومراسم الملك⁽¹⁾.

شرح ابن فضل الله منهجه في مقدمة كتابه، نبينه على النحو التالي:

منهج الرواية بالمشاهدة والرؤية:

وهذا فيما كتبه عما عاصره من أحداث في مصر والشام والحجاز، فيقول "ما اعتمدت في ذلك على تحقيق معرفتي له، فيما رأيته بالمشاهدة"⁽²⁾، ولا يفوته أي تفصيل دون ذكره، وقد تميز بنقله أحداث كثيرة بسبب قربه من السلطان ودوائر صناعة القرار، وهو أمر لم يتيسر لغيره من المؤرخين، الذين لا يكونون على دراية بما يدور في الدوائر المغلقة للدولة، فتكون كتاباتهم أقل عمقاً وجودة، ويحُب ابن فضل الله الغيبة عن نفسه، ويخرج نفسه من دائرة محاباة السلاطين وتزوير الوقائع بقوله "ولا يعتد معتقد أو يظن ظان أنى قلت في هذا بغرض لكوني من أهل هذه البلاد وتحت ظل ملوكها، وربيب أنا وآبائي في نعم سلاطينها، فمعاذ الله أن أقول إلا الحق أو أسطر عني غير الصحيح"⁽³⁾.

منهج الرواية بالسماع:

استخدم ابن فضل الله منهجية علمية أمينة ورصينة، تشابه إلى حد كبير منهجية أهل الحديث في التاريخ الإسلامي، ويشرح ابن فضل الله منهجيته فيقول "كنت أسأل الرجل عن بلاده، ثم أسأل الآخر والآخر لأقف على الحق، فما اتفقت عليه أقوالهم، وتقاربت فيه أثبته، وما اختلفت فيه أقوالهم أو اضطربت تركته، ثم أنزل الرجل المسؤول مدة أناسيه فيها عما قال، ثم

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (3/ 12).

(2) المصدر نفسه (1/ 67) ط العلمية

(3) المصدر نفسه (3/ 418).

أعيد عليه السؤال عن بعض ما كنت سألت، فإن ثبت على قوله الأول، أثبت مقاله، وإن تزلزل أذهبت في الريح أقواله، كل هذا لأتروى في الرواية، وأتوثق في التصحيح"⁽¹⁾.

"أسأل كل وارد على باب سلطاننا - أعزه الله بنصره - من جميع الآفاق، .. وما أحدث مع رسول يصل من ملوك الأرض في مطارحة حديث ومراوحة قديم وحديث إلا وجريت بذلاً ذل السؤال عن بلادهم وأوضاع ملوكها، ووظائف الرعايا في سلوكها وما للجنود بها، وطبقات أرباب الرتب العالية من الأرزاق، ومقدار تفرقة خزانة الأخلاق، وكيف زي كل إنسان، وما تمتاز به كل طائفة من اللباس"⁽²⁾.

استخدم ابن فضل الله هذه المنهجية فيما ذكره من أحداث ممالك الهند وممالك المغول وممالك الروم"⁽³⁾.

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (3 / 11).

(2) المصدر نفسه (3 / 32).

(3) المصدر نفسه (3 / 12).

منهج النقل عن المتون السابقة:

هذا فيما كتبه عن أحداث سابقة لعصره، أو في تراجم من كتب عنهم، فينقل عن الطبري⁽¹⁾، وابن عساكر⁽²⁾، وعلاء الدين عطا ملك جويني⁽³⁾، ورشيد الدين فضل الله⁽⁴⁾، وابن خلكان⁽⁵⁾، وعماد الدين الأصفهاني⁽⁶⁾.

قال "فإن نقلت عن بعض الكتب المصنّفة في هذا الشأن، فهو من الموثوق به فيما لا بد منه: كتقسيم الأقاليم، وما فيها من أقوال القدماء، واختلاف آراء الحكام، إلى غير ذلك من غرائب وعجائب، وأخبار ملل ودول، وذكر مشاهير أعلام، وتاريخ سنين وشهور وأيام... وأكمل به نقصي... لا لأكثر به حجم الكتاب"⁽⁷⁾.

(1) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري، المؤرخ المفسر (224 - 310 هـ=839-922م). شذرات الذهب، ابن العماد (29/1).

(2) أبو القاسم ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله، أبو القاسم، ثقة الدين ابن عساكر الدمشقي، المؤرخ الحافظ الرحالة. كان محدث الديار الشامية، ورفيق السمعاني (صاحب الأنساب) في رحلاته. (499 - 571 هـ=1106-1176م). المصدر نفسه (43/1).

(3) علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين بن محمد الجويني (المتوفى نحو 683 هـ=1284م) هو مؤرخ وشاعر فارسي، وصاحب كتاب "تاريخ جهانگشا". عمل في البلاد المغولي كاتباً مقرباً من هولاكو، ثم كلفه بحكم بغداد. فوات الوفيات، الكتبي ابن شاکر (452/2).

(4) الوزير رشيد الدولة، فضل الله ابن أبي الخير بن عالي، مشير الدول الهمذاني، الطبيب العطار والده: تشغل بالطب وعلوم الأوائل، وأسلم، ومات أبوه على دين اليهود، واتصل هو بغازان وخريندا، وعظم شأنه جداً، ثم قتلوه وقتلوا ابنه قبله سنة (716هـ=1316م). الوافي بالوفيات، الصفدي (186/7).

(5) ابن خلكان، أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي، أبو العباس، (ت 681هـ=1282م). المؤرخ، صاحب (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان)، ولد في إربل وانتقل إلى مصر فأقام فيها مدة، وتولى نيابة قضائها، وسافر إلى دمشق، فولاه الملك الظاهر قضاء الشام. طبقات الشافعية، السبكي (32/8).

(6) عماد الدين الكاتب (519 - 597 هـ=1125-1201م)، مُحَمَّد بن مُحَمَّد صفی الدین ابن نفیس الدین حَامِد أَبُو عبد الله الاصبهاني مؤرخ عالم بالأدب من أكابر الكتاب وقدم إلى بغداد حدثاً فتأدب وتفقّه فلمع اسمه وقلد عدة مناصب كبيرة في الدولة ثم رحل إلى دمشق فاستخدم عند السلطان نور الدين في ديوان الإنشاء وتقل في مناصب بعدها بنى مدرسة عرفت باسمه "العمادية". وفیات الاعیان، ابن خالكان (149/5).

(7) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (67 /1) ط العلمية.

المبحث الثالث:

تعريف بالمغول:

إن الوصول إلى أصل القبائل المغولية، والبحث في جذورها أمر بالغ الصعوبة، ويكتنفه الكثير من الغموض، كون المغول لم يهتموا بتسجيل تاريخهم سوى في مرحلة متأخرة، ويعود أصل المغول إلى القبائل التركية التي سكنت منطقة شمال منغوليا، ولم يظهر اسم المغول في العالم إلا بعد توحيد جنكيز خان القبائل المغولية، وبدأ توسيع دولته على حساب جيرانه⁽¹⁾.

لم يذكر ابن فضل الله العمري تفاصيل عن حال المغول قبل انطلاقهم وغزوهم العالم، سوى إirاده لترجمة جنكيز خان، وتأسيسه الدولة بعد توحيد القبائل، وبدأ بالتأريخ للمغول من عهد جنكيز خان، على اعتبار أنه مؤسس الإمبراطورية المغولية⁽²⁾.

خلط المؤرخين القدامى بين المغول والتتار، إلا أن رشيد الدين فضل الله الهمذاني، كان من أوائل من كتب عن تاريخ المغول بالتفصيل، بأمر من غازان خان، وأكد أن التتار قبيلة مختلفة عن المغول، وأن لقب المغول لم يطلق إلا على القبائل التي وحدها جنكيز خان وخضعت لإمرته⁽³⁾.

يقول الهمذاني "مع أن المغول والأتراك يتشابهون وأطلق عليهم في الأصل لقب واحد، فإن المغول صنف من الأتراك وبينهم تفاوت واختلاف شاسع"⁽⁴⁾.

أصول المغول:

المغول من الجنس التركي، وهم أكثر الأجناس التركية عدداً بعد التتار، وجميع الترك من ولد كומר بن يافث بن نوح⁽⁵⁾.

يقول البناتكي، أن نبي الله نوح أرسل ابنه يافث إلى المغول ليهديهم لشريعة الله، وسمي هناك أبو لجة خان، وأصبح ابنه ديب ناقوري، ملكاً، ثم خلف من بعده أربعة من الأبناء، لكنهم تركوا الوحدانية وعبدوا الأصنام، وملكوا عليهم كورخان أكبر هؤلاء الأبناء الأربعة، ثم ثار أغور

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (3/ 100).

(2) المصدر نفسه (3/ 97).

(3) جامع التواريخ، تاريخ هولاكو (ص 204).

(4) المصدر نفسه (ص 212).

(5) تاريخ، البناتكي (1/ 400).

على والده كورخان، وكان موحداً مسلماً، وشكل جيشه من الأتراك وأطلق على كل قبيلة منهم لقب، وجميعهم يسمون الأتراك الأغوز، وحارب المشركين الذين اطلق عليهم لاحقاً المغول، وعرضهم للإبادة، واستطاع أن يفر من المغول شخصان، هما تكور وقيات وأختهما إلى الجبال، وبعد أربعمئة عام، كثر عدد أبناء وأحفاد قيات، وخرجوا من الجبل، ثم انقسموا إلى قسمين؛ مغول درلكين، ومغول بيرون ويعود أصل جنكيز خان للقسم الأخير⁽¹⁾.

القبائل في منغوليا قبيل قيام دولة جنكيز خان:

لم يكن للقبائل القاطنة في منغوليا سلطة جامعة أو كيان موحد، وعاشت المنطقة حروب متواصلة وفترات عدم استقرار طويلة، ولم يكن يحكم التعامل بين الناس سوى شريعة الغاب، وتفرق المغول ما بين صيادين ورعاة أغنام وقاطعي طريق، قال الجويني مؤرخ المغول "ولم يكن للمغول قبل خروج جنكيز خان رئيس أو حاكم، وكانت كل قبيلة أو اثنتين تعيشان منفصلتين لا تتفقان، النزاع والخصام قائم ومستمر بينهم، وكان بعضهم يعتبر السرقة والزور والفسق والفجور من الشجاعة والبطولة"⁽²⁾.

1. التتار:

أكبر القبائل المنتشرة في منغوليا، وهم في قسمين؛ قسم من ثلاثين قبيلة، والآخر من تسع قبائل، وكانت الحروب بين التتار والمغول متواصلة لسنوات طويلة، وعرفوا بالبأس الشديد، دخلت في دولة جنكيز خان وقوية العلاقات بين التتار والمغول بالمصاهرة والزواج⁽³⁾.

(1) تاريخ، البناكتي (1/ 399-400).

(2) فاتح العالم (62/1).

(3) جامع التواريخ، تاريخ خلفاء جنكيز من أوكتاي إلى تيمور، الهمداني (ص 104، 313).

2. الكرايت:

كانت ذا قوة ومكانة تفوق غيرها من القبائل ما عدا التتار، وتميزت بالعدة والعتاد والعدد، دخلت في المسيحية أوائل القرن الرابع الهجري، العاشر للميلاد، تحالف زعيمها أونك خان مع يوسكاي خان -والد جنكيز خان- الذي ساعده في أخذ زعامة الكرايت، وبقي التحالف حتى عهد جنكيز خان، وانفرط عقد التحالف بعد أن علم جنكيز خان أن أونك يتربص به، لقتله خوفاً من منافسته على ملكه⁽¹⁾.

3. النايمان:

بدو رحل، عرفت بكثرة العدد، والبأس الشديد، تدين بالمسيحية، دخلت في دولة جنكيز خان ثم شقت عصا الطاعة، وقاموا بمنع المسلمين من ممارسة دينهم، ومنع الأذان والمدارس الإسلامية، ثم أعيد الأذان والشعائر الإسلامية، بعد إخضاعهم مرة أخرى⁽²⁾.

4. الأغوز⁽³⁾:

وتعني القبائل العشرة، ويطلق عليها المؤرخين العرب لقب الغز ومنهم السلاجقة⁽⁴⁾.

5. قيات:

القبيلة التي ينتمي إليها جنكيز خان وهي أكثر القبائل شهرة، وقوة في أرض منغوليا، كانت متحالفة مع قبيلة الكرايت، وأرتفع قدرها بفتوحات جنكيز خان⁽⁵⁾.

(1) الجويني، فاتح العالم (74/1)؛ مسالك الأبصار، ابن فضل الله (103/3-104).

(2) فاتح العالم، الجويني (94/1).

(3) جامع التواريخ تاريخ خلفاء جنكيز من أوكتاي إلى تيمور، الهمذاني (ص101).

(4) تاريخ، ابن خلدون (426/5).

(5) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (105/3).

6. المركيت:

قبيلة مغولية خاضت حرب ضد جنكيز خان وخضعت له وقام بقتل زعيم القبيلة وأعطى أرملته لأبنه اوكتاي، وتدعى توركينا⁽¹⁾، وهي التي حكمت الامبراطورية المغولية مدة أربع سنوات بعد وفاة زوجها⁽²⁾.

7. الأويغور:

قوم من الأتراك يدينون بالمسيحية واليهودية والوثنية، يؤمنون بالسحر ويتعاملون به⁽³⁾، هم أكثر الأتراك والمغول تمدناً، يطلقون على ملكهم لقب "أيدي قوت" وتعني سيد الدولة، بعد خضوعها لجنكيز خان شاركوا معه في اجتياح خوارزم، وحاولت هذه القبيلة التمرد والعصيان على حكم أبناء جنكيز خان، وأعدت جيش مكون من خمسين ألف مقاتل، إلا أنها فشلت بسبب تسرب معلومات استخبارية عن المخطط، وهم أشد القبائل حقداً على الدين الإسلامي⁽⁴⁾، ولهم أبجديتهم الخاصة، أمر جنكيز خان بتعليم الصغار من أبناءه الكتابة الأويغورية بسبب عدم وجود أبجدية وكتابة لقبائل المغول والنتار، واستخدمت بعد قيام دولة المغول في مراسلاتهم وكتاباتهم⁽⁵⁾.

8. أويرات وقنقورات:

سكنت قبيلة أويرات إلى جوار مساكن قبيلة قنقورات، وبينهما اندماج وتشابه كبير، وكانوا من أوائل القبائل التي دخلت حلف جنكيز خان بعد انتصاره على أونك خان⁽⁶⁾.

(1) جامع التواريخ تاريخ خلفاء جنكيز من أوكتاي إلى تيمور، الهمذاني (ص17).

(2) فاتح العالم، الجويني (1/248-249).

(3) المصدر نفسه (1/91).

(4) المصدر نفسه (1/81-82).

(5) المصدر نفسه (1/65).

(6) فاتح العالم، الجويني (1/76)؛ مسالك الأبصار، ابن فضل الله (3/105).

جنكيز خان وتأسيس الإمبراطورية وتوسعها:

هو تيموجين بن بيسوكي بهادر ابن تريان بن قبل خان بن تومنيه خان بن باي سنقر بن قيدو ابن ذو توم منن بن بغابن بوذنجر بن الآن قوا، ولما على ذكره وأسس دولته لقب بجنكيز خان. (1)

ويعود نسب جنكيز خان إلى امرأة تسمى آلان قوا، كانت متزوجة من رجل وأنجبت منه ولدين، أحدهما يدعى بكتوت والآخر بلكوت، وأبناء هذين الولدين يسميان عند المغول الدرلكيه، ثم مات زوجها، وبقيت مدة بغير زوج، فحملت فأنكر عليها الحمل، فادعت أنها ما حملت من أحد، واختلقت رواية أن النور دخل في فرجها، وحملت منه، بثلاثة ذكور، وطلبت المهلة حتى تضع فإن لم تلد ثلاثة ذكور تعاقب، فولدت بوقن فوناغي، وبوسن سالجي، وبوذنجر، وهؤلاء الثلاثة هم المسمون بالنورانيين نسبة إلى النور الذي ادعت أنهم أنه نزل من السماء إلى فرجها، ولهذا يقال عن جنكيز خان أنه ابن الشمس، وهو من نسل بوذنجر (2).

يظهر في أسطورة النورانيين التأثير بالفكر النصراني، وولادة عيسى عليه السلام من مريم البتول من غير والد.

ولد جنكيز خان في ذي القعدة سنة (549هـ=1154م) (3)، وكان والده بيوسكي بهادر زعيم قبيلة قيات والعديد من القبائل الأخرى المتحالفة معه، ولما بلغ تيموجين الثالثة عشر توفي والده، وآلت الرئاسة لتيموجين من بعد والده، لكن القبائل رفضت الأمر، وانفض عقد التحالف القبلي، وكانت قبيلة التايجوت من أشد أعداء جنكيز خان وأكثرهم رفضاً لزعامتة، وعاش تيموجين مع والدته وشقيقه في الغابة على ما يلتقطون من الطعام وما تصطاد أيديهم (4).

توحيد القبائل تحت راية جنكيز خان:

كان بيوسكي بهادر والد جنكيز خان قد تحالف مع أونك خان (5) زعيم قبيلة الكرايت، فلجأ جنكيز خان إلى حليف والده القديم، فأكرم أونك خان جنكيز خان، وقربه منه وتوسم فيه

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (100/3-101)؛ تاريخ، البناكتي (1/399-400).

(2) المصدر نفسه.

(3) تاريخ، البناكتي (1/400).

(4) المصدر نفسه.

(5) أونك خان رئيس قبائل الكرايت، وكان ذا قوة ومكانة تفوق غيرها من القبائل، وتمتاز قبيلته بالعدة والعتاد والعدد. مسالك الأبصار، ابن فضل الله (3/102).

القيادة والرئاسة، وقدمه على من سواه في المراتب، وساعده في استعادة قبيلته من أعدائه، وأدخله في حلفه⁽¹⁾، وعينه على قيادة الجيش⁽²⁾، إلا أن قادة أونك خان وأبنائه انتابهم الشعور بالخطر من مكانة جنكيز خان، التي تنامت مع الزمن، وتوصلوا إلى حقيقة أنهم إن لم يتخلصوا من جنكيز خان، فإنه سيملكهم من بعد أونك خان، لما ظهر منه واشتهر عنه من قوة وبأس وسياسة وكثرة أتباع، بسبب تواضعه وقربه من عامة الناس⁽³⁾.

وبدأ أونك خان بتجهيز الخطط للتخلص منه، ووصلت معلومات استخبارية لجنكيز خان تفيد بنية أونك خان مهاجمته وقتله، وعلى الفور قام جنكيز خان بالهرب وإخلاء مقره مع فئة قليلة من أتباعه، إلا أن قوات أونك خان لاحقته، وكان جنكيز خان قد أعد لهم كميناً، وقضى على القوة المهاجمة التي كانت تفوقه بالعدد والعدة⁽⁴⁾.

بعد انحلال عقد الشراكة بين أونك خان وجنكيز خان، استجمع جنكيز قواه، وجمع تحت لوائه قوة تمكنه من مهاجمة أعدائه، واشتبك مع أونك خان في عدة معارك، استطاع بعدها القضاء عليه وعلى ابنه⁽⁵⁾، وكان ذلك عام (599هـ=1203م)⁽⁶⁾.

بعد عدة معارك واستقرار الأمر؛ قام جنكيز خان بمراسلة القبائل للدخول في حلف جديد، وعرض عليهم شروط رغبتهم بالانضمام إليه، فاستجابت له الأويرات، وقنقورات، واستطاع القضاء على قبيلة التتار، وأخضع الأيغور والنايمان ودخل تحت سلطانه من تبقى من قبيلة الكرايت بعد مقتل زعيمهم أونك خان⁽⁷⁾.

ما إن انتهى جنكيز خان من توحيد القبائل وبسط سيطرته على منغوليا، حتى قام بترتيب دولته، وسن قوانينه التي تسمى "الياسا"⁽⁸⁾، وشرع بفتوحاته الخارجية والتي استهلها بالهجوم على

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (3/103).

(2) فاتح العالم، الجويني (1/74).

(3) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (3/103).

(4) المصدر نفسه.

(5) المصدر نفسه (3/104).

(6) فاتح العالم، الجويني (1/75).

(7) فاتح العالم، الجويني (1/76)؛ ابن فضل الله، مسالك الأبصار (3/104-105).

(8) الياسا: الأحكام والقانون وهي بالمغولية يساي، وترد في العربية يسق ويساق والكلمة مغولية تعني قانون، وهي ياسا وباسق وباسا، وهي مجموعة من القوانين التي وضعها جنكيزخان ليسيير عليها قومه. مسالك الأبصار، ابن فضل الله، (3/99).

الصين عام (607هـ=1211م) حتى أخضع معظم أراضيها لسيادته، ثم توجه غرباً مع بداية عام (615هـ=1218م) ودمر الدولة الخوارزمية⁽¹⁾.⁽²⁾

إدارة الإمبراطورية:

لجنكيز خان ما يزيد عن عشرة آلاف ابن وحفيد، من نساء وسراريه، لكنه كان يعتمد بشكل أساسي على أربعة من أبنائه في توطيد حكمه وإدارة دولته، وهم أبناء الخواتين⁽³⁾، ففي عادة المغول تعظيم الولد بعظم نسب والدته، وهم جوجي وجغتاي واوكتاي وتولوي⁽⁴⁾.

جوجي: ولده الأكبر وهو مكلف بالصيد بكامل تفاصيله، وللصيد عند المغول طقوس خاصة فهو يستمر لمدة ثلاث شهور في كل عام وهو أشبه بالتمرين العسكري للجيش⁽⁵⁾.

جغتاي: مكلف بتنفيذ قوانين الياسا، يمكن تسميته بالمصطلح المعاصر وزير العدل، كان مغروراً متكبراً حاقداً على المسلمين شديد التمسك بقوانين الياسا⁽⁶⁾.

اوكتاي: وكان صاحب رأي وعقل ومشورة، كلفه والده بتدبير الولايات وتعيين الرجال لقيادة الجيوش والمناصب العليا في الدولة، وعينه جنكيز خان قبل وفاته ولياً للعهد، خلافاً لعادة المغول التي تقضي بأن يكون خليفة الخان هو ابنه الأصغر من زوجته الأكبر⁽⁷⁾، نظراً لرجاحة عقله وحسن تدبيره⁽⁸⁾.

تولوي: سماه والده بالخادم، كلفه بالمخازن والأموال والأسرى⁽⁹⁾.

(1) دولة خوارزم أسست على يد سلالة تركية مسلمة سنية حكمت أجزاء كبيرة من آسيا الوسطى وغرب إيران بين سنوات (469=1077م - 616هـ=1220م) كانوا اتباعاً للسلاجقة ثم استقلوا.

(2) فاتح العالم، الجويني (111/1).

(3) الخواتين جمع مفردة خاتون وهي السيدة عريقة النسب. مسالك الأبصار، ابن فضل الله (111/3).

(4) المصدر نفسه (113/3).

(5) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (111/3).

(6) المصدر نفسه.

(7) فاتح العالم، الجويني (201/1).

(8) المصدر نفسه (198/1).

(9) تاريخ، البناكتي (433/1).

تقسيم الملك بعد جنكيز خان:

بعد إنهاء جنكيز خان من فرض سيطرته على ما يقارب من ربع مساحة اليابسة على الكرة الأرضية، عاد من رحلة الغزو الطويلة عام (624هـ=1227م)⁽¹⁾، إلى دياره الأولى مغولياً، وكان قد شعر بقرب دنو الأجل، فجمع أبنائه وأوصى بأن يكون الملك من بعده لولده اوكتاي، وخصص لكل فرد من أبنائه إقطاع وحامية مكونة من أربعة آلاف مقاتل⁽²⁾، وكان سابقاً قد قسّم قيادة الإمبراطورية على إخوته وأبنائه من الخواتين، فخصص لأخيه أوتكين نويان بلاد الختا⁽³⁾، ولابنه جوجي من حدود قبالق إلى أقصى شفشين وبلغار⁽⁴⁾، (صحراء القبجاق، وتبريز)⁽⁵⁾، وهمدان⁽⁶⁾، ومراغه⁽⁷⁾.

ولابنه جغتاي من حدود الأويغور⁽⁸⁾ إلى سمرقند وبخاري (بلاد ماوراء النهر)، ولابنه اوكتاي حدود آمل وقرباق⁽⁹⁾، وبقي ابنه تولوي في موضع إقامة أبيه⁽¹⁰⁾.

توفي جنكيز خان في الرابع من رمضان عام (624هـ=1227م)⁽¹¹⁾، وأقيم اجتماع القوريلتاي⁽¹⁾، الذي جمع كل من أبناء جنكيز خان وإخوته الذين كانوا متفرقين في أنحاء الدولة،

(1) فاتح العالم، الجويني (198/1).

(2) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (3/ 112).

(3) الختا، قبائل سكنت شمال شرقي إيران في عهد السلاجقة وأقاموا دولة سنة (518 هـ = 1124م) كانت بين ممالك المغول وخوارزم، قضى عليهم سنة (609 هـ = 1213م)، وهم شعوب الختن بكسر الخاء - يعرفون لدى المغول باسم خادقوت. المصدر نفسه.

(4) البلغار، من بلغار القولجا (البلغار مدينة للصقالبة شديدة البرد لا يكاد البرد يقلع عن أرضهم صيفا ولا شتاء). المصدر نفسه.

(5) تبريز هي كوريز، كان بها مقر حكم هولكو، أشهر مدن آذربيجان. مسالك الأبصار، ابن فضل الله (3/ 114)

(6) همدان وهمذان اسم لمدينة إيرانية مشهورة - وهي مدينة من الجبال أعذبها ماء وأطيبها هواء وهي أكبر مدينة بها. المصدر نفسه.

(7) مراغة من قواعد آذربيجان تقع غربي تبريز، بها مرصد بناه نصير الدين الطوسي. المصدر نفسه.

(8) الأويغور: قوم من الأتراك يدينون بالمسيحية واليهودية والمانوية، وهم بصفة عامة أكثر أقوام الأتراك والمغول تمدناً، كانوا يقطنون شمال شرقي تركستان، وشمال نهر قاريم، وأهم مدنها تورفان وبيش باليغ وبرقول وقره شهر وآمالايغ، كان لهم خط خاص لهم وهو الخط الأويغوري. مسالك الأبصار، ابن فضل الله (3/ 112).

(9) قرباق: هي قره باغ أي الحديقة السوداء، أرض تقع ببلاد آذربيجان الحالية. المصدر نفسه (3/ 112).

(10) فاتح العالم، الجويني (199/1).

(11) المصدر نفسه (198/1).

لإقرار توصيات جنكيز خان بتقسيم الملك، وتم التوافق على تبني التوصيات بعد أربعين يوماً من التداول في العام (626هـ=1229م)، أي بعد وفاة جنكيز خان بعامين، كما تم التشديد على بقاء العمل وفق قوانين الياسا كما سابق العهد⁽²⁾.

استمرت الدولة في عهد اوكتاي بالتوسع، وبقيت حالة الوفاق بين الأبناء والإخوة، كما ظهر جلياً قدرته على إدارة الإمبراطورية بكفاءة عالية بحسن سياسته، واشتهر بحسن الخلق والعطف على رعيته⁽³⁾.

بدأت براعم الشقاق والخلاف بالنمو بين أبناء العائلة المغولية الحاكمة مع وفاة اوكتاي، فبعد وفاته بشكل مفاجئ سنة (639هـ=1242م)⁽⁴⁾، أرسلت زوجته "توراكينا خاتون" الرسل إلى جميع وجهاء العائلة الحاكمة لحضور اجتماع القوريلتاي لاختيار خليفة لزوجها، وقد استطاعت الحصول على الموافقة من الأبناء والإخوة على تسيير الحكم بدلاً عن زوجها لحين التمكن من الاجتماع لمناقشة خلافة اوكتاي، واستمرت بالحكم مدة أربع سنوات⁽⁵⁾، واستطاع ابنها كيوك⁽⁶⁾، اعتلاء العرش المغولي بعد انتخابه من قبل المجلس، لكن أعمام كيوك وأبناء عمومته الكبار لم يكونوا قد حضروا هذا المجلس، ولم يعقد المجلس بكامل أعضائه، وامتاز كيوك بالشدة المفرطة وميوله للدين النصراني، وحاول انتزاع أراضي ابن عمه باتو بن جوجي، وأرسل في عزل ولاية باتو عن بعض ممتلكاته، ورفض باتو ما اعتبره تطاولاً من ابن عمه، وأمر الولاية بعدم طاعة القرارات الجديدة، فأرسل كيوك جيش لمعاقبة المخالفين، لكن نواب باتو استطاعوا القضاء عليه، ثم جهز كيوك جيشاً آخر من ستمائة ألف فارس، وتحرك على رأسه، لكنه توفي قبل لقاء الجيشين بعشرة أيام بشكل مفاجئ، فاضطرب جيش كيوك وإنهارت معنوياته، وانطلقت الرسائل من خواتين كيوك الموجودات في جيشه إلى باتو؛ مقرين له بالطاعة مسلمين له بالملك من بعد كيوك⁽⁷⁾.

(1) القوريلتاي ، هو اجتماع لتتصيب القآن، وهو الملك الكبير والخان هو الأمير. مسالك الأبصار، ابن فضل الله(129/3).

(2) فاتح العالم، الجويني(201/1).

(3) فاتح العالم، الجويني(213/1)؛ مسالك الأبصار، ابن فضل الله(123 /3).

(4) فاتح العالم، الجويني(211/1).

(5) المصدر نفسه (247/1).

(6) كيوك بن اوغداي بن جنكيز خان، كان رجلاً شريفاً جباراً متسلطاً قوي النفس، سفاحاً، عقد حلفاً بين المغول والعالم المسيحي ضد المسلمين. مسالك الأبصار، ابن فضل الله (114 /3).

(7) المصدر نفسه (114 /3)

رفض باتو بن جوجي استلام مقاليد الحكم، وأرسل إلى ابن عمه منكو بن تولوي، وأبلغه بنيته الوقوف إلى جانبه ليتمكن من ارتقاء العرش، وأرسل باتو شقيقه بركة، على رأس مئة ألف فارس لحماية منكو ومؤازرته في استلام الملك، الأمر الذي تم له بنجاح⁽¹⁾.

من الملاحظ اختلاف الرواية بين ابن فضل الله ورشيد فضل الله الهمذاني عن رواية الجويني في هذه الحادثة، حيث ورد عند الجويني، أن كيوك أرسل في طلب لقاء باتو، وهم باتو بالسفر للقاء كيوك، ولكن كيوك مات قبل اللقاء، ولم يأتي على ذكر الخلاف بين الطرفين ومسير كل منهما للآخر على رأس جيش⁽²⁾.

لكن البناكتي ذكر حدوث اضطراب بعد موت كيوك، وأن باتو راسل منكو للحضور لاستلام العرش، ما يعزز رواية ابن فضل الله والهمذاني، وقد يكون الجويني، تجنب ذكر مواضع الخلاف، أو حتى لا يظهر فضل أبناء جوجي (باتو وبركة) على أبناء تولوي (منكو وهولاكو) في اعتلاء العرش نظراً لعمله في بلاط هولاكو الذي كانت الحروب بينه وبين ابن عمه بركة سجال⁽³⁾.

ومن الملاحظ أيضاً أن ابن فضل الله ذكر أحداث انتقال الملك وتقسيم أراضي الدولة بشكل مجمل دون الدخول في التفاصيل، على عكس الجويني الذي كتب تفاصيل هذه الأحداث، وذكر كل الخلافات والأحوال السياسية الداخلية لدولة المغول، مع بقاء التوافق إلى حد كبير في الرواية التاريخية التي ذكرها المؤرخين، لكن أحدهم كتب بإجمال والآخر بتفصيل.

كما أن هذا الأمر غير مستغرب على كلا المؤرخين، ففي حين عمل الجويني وزيراً في البلاط المغولي⁽⁴⁾، عمل ابن فضل الله كاتباً للإنشاء في البلاط المملوكي⁽⁵⁾، وكلا الدولتين - المماليك والمغول - كانوا في عدااء دائم، فكان من الطبيعي أن يهتم ابن فضل الله بالسياسة الخارجية لدولة المغول أكثر من اهتمامه بسياساتهم الداخلية، وتميز ابن فضل الله عن غيره من المؤلفين بكتابته عن التاريخ الحضاري للأمم والشعوب مع عدم إغفاله التاريخ السياسي⁽⁶⁾.

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (3/ 116).

(2) فاتح العالم، الجويني (1/ 269).

(3) تاريخ، البناكتي (1/ 434).

(4) فاتح العالم، الجويني (1/ 13).

(5) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (3/ 5).

(6) المصدر نفسه (3/ 12).

بعد نجاح بركة بن جوجي في مهمته في مؤازرة ابن عمه منكو في استلام زمام الدولة، وفي طريق عودته إلى دياره، قُدر له أن يلتقي بالشيخ سيف الدين الباخريزي⁽¹⁾ في بخاري، فأسلم على يديه، واستمرت المراسلات بين بركة والشيخ الباخريزي، حتى أشار عليه الأخير بأن يكاتب الخليفة العباسي، ويدخل تحت سلطانه، فكتب الخليفة، وبعث إليه هدية، وترددت بينهما الرسل⁽²⁾.

ومن الملاحظ خلال تتبع سيرة الشيخ الباخريزي، أنه توفي عام (629هـ=1232م)، وكانت عودة بركة من رحلته، بعد تنصيب مونكو عام (648هـ=1250م)⁽³⁾، ما قد ينبئ بأن بركة قد أسلم قبل تنصيب مونكو بتسعة عشر عاماً.

كما أن الجوزياني ذكر في كتابه طبقات ناصري أن جوجي بن جنكيز خان حين ولد ابنه بركة أمر بأن تربيته مربية مسلمة، فيقول "أعطوا هذا الطفل لمربية مسلمة، حتى تقطع سرتة مسلمة، ويرضع لبن مسلمة كي ينشأ مسلماً، فقد جعلت هذا الولد مسلماً"⁽⁴⁾، وإن صحت هذه الرواية فقد يكون بركة خان مسلم منذ صغره، أو تأثر بالإسلام مبكراً ولم يعلن إسلامه إلا في مرحلة متقدمة.

استمرت فترة الهدوء الداخلي في الدولة المغولية طوال فترة حكم مونكو بن تولوي، ولم تتعكر الأجواء إلا بعد تقدم هولاكو شقيق مونكو لمهاجمة بغداد لإسقاط الخلافة العباسية، ما أثار غضب بركة خان، وبدأت الحرب بين بركة وهولاكو، واستمرت فترة طويلة من الزمن، أدت في النهاية لتصدع الملك المغولي، وانقسمت الإمبراطورية بعد وفاة مونكو إلى ثلاثة دول، فاستقل هولاكو بفارس، وقوبلاي في الصين⁽⁵⁾، والتاي وغرب منغوليا لقايديو حفيد اوكتاي وأبناء جغتاي في تركستان، وبركة خان في القبايق، وبذلك يكون قد انفرط عقد الإمبراطورية الموحدة، ودخلت دول المغول في مرحلة الممالك المستقلة⁽⁶⁾.

(1) سيف الدين الباخريزي من شعراء القرن السادس الهجري، من مشايخ المتصوفة توفي سنة (629 هـ=1232م).

مسالك الأبصار، ابن فضل الله (3/115).

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

(4) (2/165).

(5) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (3/129).

(6) المصدر نفسه (3/93).

انتهى الحكم المغولي بانتهاء حكم آخر أبنائهم بعد 101 عام، بعد أن مزقت الدولة العديد من العوامل الداخلية والخارجية؛ فكان التباعد واتساع حدود الدولة، وكثرة الموارد المادية من مواد خام وزراعة وتجارة واكتفاء ذاتي للأقاليم، واتساع قاعدة جيوش كل فئة وكثرة الموارد البشرية، كان قد شجع أبناء كل من الفروع الأربعة على الاستقلال والشعور بعدم الحاجة للدولة الأم⁽¹⁾، كما أن العامل الديني كان له أثر واضح في الانقسامات، فإسلام القبيلة الذهبية بقيادة بركة خان وتحالفه مع المماليك في الشام ومصر عزز دوافع الحرب مع هولاكو الذي هاجم بغداد واسقط الخلافة العباسية وقتل الخليفة⁽²⁾، وكان - كيوك - يميل إلى النصرانية بسبب تربيته على أيدي رهبان نصارى، وبدأ بطرد المستشارين المسلمين من البلاط المغولي، وتقوية النصارى وبدأ واضحاً التدخل النصراني في الأوامر الملكية، حتى أنه بدأ بمخالفة بعض قوانين الياسا⁽³⁾، كما أن المغول بعد انطلاقهم لخارج حدود منغوليا لم يكونوا أصحاب علوم أو معرفة في إدارة الدول، وبرز الاحتياج لديهم لتوظيف من لديه القدرة على إدارة الدول من تجارة وعمارة واقتصاد، الأمر الذي استدعى توظيف أبناء البلاد المفتوحة في البلاط المغولي، فدخلت الحسابات القومية والعرقية في السياسة المغولية، وأصبح لزاماً على خان كل دولة من دول المغول حساب الأمور بدقة ومراعات الحسابات والتوازنات في اقليمه وبلاطه، وفي كثير من الأحيان كانت تتعارض مصالح القطر أو الإقليم مع مصلحة الإمبراطورية ككل، فيتم تغليب مصلحة الأول، ثم إن الإمبراطورية المغولية عند انطلاقها، اعتمدت على قوانين الياسا⁽⁴⁾، التي كانت تتناسب مع المرحلة الأولى لقبائل موحدة، وقد دخلت ثقافات وشعوب وحضارات شتى في الإمبراطورية المغولية، واكتشف المغول محدودية الاستفادة من قوانين الياسا بالمقارنة مع القضاء الإسلامي وفروعه ومذاهبه وطرق الحل والعقد⁽⁵⁾، ولم تكن تقارن الياسا بقوانين أهل الصين المتقدمة، كما دخلت المصالح الشخصية وأثرت الحياة المرفهة على الجيل الجديد من المغول، فكان لابد لدولتهم من الاضمحلال والتفكك، ولم تعيش الدولة سوى مائة عام فقط⁽⁶⁾.

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (197/3).

(2) المصدر نفسه (116/3).

(3) فاتح العالم، الجويني (261/1).

(4) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (104/3).

(5) فاتح العالم، الجويني (218/1).

(6) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (462/3).

الفصل الثاني: الحياة الاجتماعية الدينية لدى
المغول من خلال كتاب مسالك الأبصار في ممالك
الأمصار.

المبحث الأول: مكونات المجتمع

سبق في الفصل الأول أن جنكيز خان قام بتوحيد قبائل في منغوليا⁽¹⁾، قبيل بداية توسعه الخارجي وغزو العالم، ولم تكن تجمع هذه القبائل وحدة دين أو لغة، وتعددت ألسن وديانات المجتمع المغولي منذ بداية الدولة، فانتشرت الديانة الشامانية والبوذية والمسيحية، وما لبث أن دخل المسلمين واليهود في طبقات المجتمع المغولي في وقت لاحق من توسع الإمبراطورية⁽²⁾.

تُقسم الأمم والشعوب بشكل عام إلى عدة طبقات، ما بين طبقة حاكمة، وتجار ووزراء، ومتوسطي الحال والبسطاء، وقد قيل "الناس أربع طبقات: ملوك قدّمهم الاستحقاق، ووزراء فضّلهم الفطنة والرأي، وعليه أنهضهم اليسار، وأوساط ألحقهم بهم التأدّب، والناس بعدهم زبد جفاء وسيل غثاء...همّ أحدهم طعمه ونومه"⁽³⁾، وعليه يمكن تقسيم المجتمع المغولي إلى عدة طبقات على النحو التالي:

الطبقة العامة:

كانت طبقات المجتمع المغولي غاية في البساطة قبل وبعيد الوحدة تحت حكم جنكيز خان، فكانت الروابط المجتمعية عبارة عن مجموعة من أفراد الجد الواحد يعيشون تحت ظل قبيلة واحدة، ويعملون في الصيد أو الرعي أو نهب أعدائهم، ولم يكن في هذه الطبقة حرفيين أو مهندسين أو أصحاب علوم، وعم الجهل على أغلب هذه الطبقة، لم يكن للمغول خط كتابة أو حظ من العلوم⁽⁴⁾.

مع تكون الإمبراطورية وتوسع النطاق الجغرافي لها، ودخول أراضي شاسعة تحت حكم المغول، بما فيها من موارد مادية وبشرية، طبيعية وصناعية، ظهرت العديد من الطبقات الجديدة في المجتمع، وما لبث أن تغير المجتمع وتنوعت طبقاته بشكل كبير.

يقول ابن فضل الله "وأهل هذه المملكة قد داخلهم العجم، وزوجهم وتزوجوا منهم، وخلطوهم بالنفوس في الأمور فلهذا تفخمت قواعدهم"⁽⁵⁾.

(1) فاتح العالم، فاتح العالم (1/74-95)؛ مسالك الأبصار، ابن فضل الله (3/103-104-105).

(2) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (3/105-216)

(3) البلدان، ابن الفقيه (ص57).

(4) فاتح العالم، الجويني (1/62).

(5) مسالك الأبصار (3/216).

الطبقة الحاكمة:

هم عشيرة جنكيز خان وأبنائه ونسله، ومن أنعم عليهم جنكيز خان وأعطاهم مميزات عالية ممن ساعده في حروبه الأولى، فقد قسم جنكيز خان ملكه على أبنائه وأخوانه، وميزهم عن باقي الناس، وخصص لكل منهم أرضاً وإقطاعاً وحامية مقاتلين⁽¹⁾.

وكان عدد أبناء العائلة الحاكمة مع بداية الإمبراطورية وقبل تفككها إلى ممالك مستقلة، قد بلغ أكثر من عشرة آلاف نفس، بخلاف التابعين والخدم والعبيد والعمال⁽²⁾.

وقد حرص المغول على مصاهرة الملوك والأمراء وسادة القبائل، لتعزيز الترابط المجتمعي وصهر الفروقات وزيادة الاندماج، فكان لجنكيز خان خمسة زوجات وأكثر من خمسمائة سرية، وجميع الزوجات من أبناء السادة والملوك، فكانت زوجته الأولى ابنة رئيس قبيلة القنقورات، وزوجته الثانية ابنة رئيس قبيلة المركريت، والثالثة من قبيلة التتار، والرابعة ابنة ملك الصين، كما حرص جنكيز خان على تزويج بناته لأبناء ورؤساء القبائل⁽³⁾.

أضيف إلى هذه الطبقة بأوامر ملكية، كل من شارك في حروب جنكيز خان الأولى، ومعاركه الفاصلة، فمُنحوا مكانة رفيعة وميزات كبيرة، وأمر جنكيز خان بأن يطلق لقب "ترخان"⁽⁴⁾ على الشابين الذين نقلا له معلومات استخبارية جنبته الوقوع في فخ أونك خان، وأصدر قانون خاص بهم يمنحهم الحصانة المطلقة، ومنع التعرض لهم مهما كانت جنائيتهم هم وعائلاتهم إلى سبعة أجيال، يقول ابن فضل الله عن هذه الطبقة "وأن لا يؤخذ بذنوب كثيرة ولو تكررت ذنوبه، واستمرت عيوبه، وأجرى ذلك لجملتهم، وآحادهما، وأن يستمر ذلك إلى سبعة أبطن من أولادهما"⁽⁵⁾.

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (3/ 112).

(2) المصدر نفسه (3/ 113).

(3) تاريخ، البناكتي (1/ 402).

(4) ترخان: لقبه يحمله أمراء وملوك تركستان، ويأتي أحيانا طرخان، وحامل لقب ترخان له مزايا عديدة ويمكنه مقابلة الملك في أي وقت - واللفظ تركي يعني في العربية رئيس ويجمع طراخنة. مسالك الأبصار، ابن فضل الله (103/1).

(5) المصدر نفسه (3/ 104).

طبقة التجار والحرفيين:

لم يكن المغول في بداية انطلاقتهم وتوسعهم سوى قبائل بدوية تتقن الرعي والصيد والترحال، وكانت الغزوات والغارات التي تشن على أعداء وجيران المغول تهدف في الأساس لزيادة الأملاك عبر السلب والنهب السبي.⁽¹⁾

تفطن المغول لمحدودية تقدمهم الحضاري مقارنةً بالشعوب التي أصبحت تحت حكمهم، كما اكتشفوا صعوبة قيادة الدولة بنظام بدائي محدود، فكان من الضروري العمل على الاستفادة من أصحاب الخبرات.⁽²⁾

عمل المغول على استقطاب أصحاب الخبرات في شتى المجالات من صناع وتجار وحرفيين، ولم يمضِ وقت طويل على تأسيس الإمبراطورية حتى كان لهذه الطبقة أثر بارز في المجتمع المغولي، وبرز دور المستشارين المسلمين بداية تأسيس الدولة، فكان لجنكيز خان ثلاثة من المستشارين المسلمين، وجعل أحدهم وزيراً للخارجية وسفيراً لدى الدول المسلمة، والآخرين أوكّل إليهم الاقتصاد والتجارة.⁽³⁾

واستفاد المغول من التجار المسلمين في فهم التجارة الدولية، وفي التعرف على الأحوال الداخلية للبلدان التي سافروا إليها أو نشؤوا فيها.

كما أن المسلمين اندمجوا بشكل كبير في المجتمع المغولي، وبنيت المساجد في قلب الدولة المغولية، وفي عهد اوكتاي أمر ببناء المسلمين "بالصاحب والأخ"، وأمر المغول بتزويج بناتهم بالمسلمين، وهو دليل على قوة التأثير الحضاري للتجار والمستشارين المسلمين في الدولة المغولية.⁽⁴⁾

وهناك دليل آخر يظهر قوة تأثير هذه الطبقة في المجتمع المغولي، فنقل البناكتي محاولات الكهنة البوذيين التخلص من تأثير المسلمين عبر الدسائس، حيث حضر كاهن منهم إلى اوكتاي وادعى أنه التقى بجنكيز خان في المنام وطلب منه التوجه لاوكتاي وإبلاغه بضرورة

⁽¹⁾ طبقات ناصري، الجوزياني(119/2)؛ العبر، الذهبي(165/3).

⁽²⁾ المصدر نفسه.

⁽³⁾ المصدر نفسه.

⁽⁴⁾ فاتح العالم، الجويني (166/2).

قتل كل المسلمين لأن نهاية ملك المغول على أن لهم⁽¹⁾، لكن رد اوكتاي عليه يظهر مدى التأثير الاجتماعي للمسلمين فيقول اوكتاي "إنهم إخوتنا وأصدقائنا، وقد ظهرت قوة بلادنا بهم"⁽²⁾

ويعد قتل أربعمائة وخمسون من التجار المسلمين التابعين للمغول هو السبب المباشر للحرب التي شنها جنكيز خان على الدولة الخوارزمية⁽³⁾.

أولى المغول اهتمام كبير بتطوير طبقة الحرفيين، فعلى خلاف قوانين الياسا التي تنص على إعدام كل من لا يستسلم لهم في الحروب، فقد كان يتم استثناء أصحاب الحرف من الإعدام، وكانوا يُنقلون إلى المدن والمخيمات المغولية ليتم الاستفادة منهم⁽⁴⁾.

كما لاقت الصناعة والحرف اهتمام كبير من دولة الخان الأكبر في الصين، ودرجت العادة على إجراء منافسات بين الصناع والحرفيين، وكان يتم تعليق المنتج المميز على باب الملك لمدة عام كامل، فإن لم يعاب من أحد كوفئ صاحبه، وبذلك اتسعت قاعدة هذه الطبقة وزادت مكانتها في المجتمع المغولي في السنين الأولى لتأسيس الدولة⁽⁵⁾.

طبقة الرقيق:

ظهرت هذه الطبقة مع التوسع المغولي في كل الاتجاهات، فكان الرقيق يباع في الأسواق بأسعار رخيصة لكثرة الأسرى، وكان التجار يتفاجئون فيما بينهم بعدد ما يملكون من عبيد وسراري⁽⁶⁾. استخدم المغول الرقيق في مجالات متنوعة، فاستخدم الشبان والرجال للمسير مع الجيوش، وفي الأعمال العسكرية من حفر خنادق وقتال في الصفوف الأولى، وحرص المغول على إبقاء عدد من السبايا أحياء في كل معركة؛ للتسري بهن، فكان لجنكيز خان وحده أكثر من خمسمائة سريّة⁽⁷⁾.

(1) البناكتي، تاريخ (424/1).

(2) طبقات ناصري، الجوزياني (171/2).

(3) فاتح العالم، الجويني (108/1).

(4) المصدر نفسه (118/1).

(5) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (130/3).

(6) المصدر نفسه (137/3).

(7) المصدر نفسه.

ولم تكن معاملة أبناء السبايا كمعاملة أبناء الخواتين⁽¹⁾، فلا يتم مساواتهم في القدر والمكانة أو في الميراث، ولا يحق لابن السرية أن يترشح لمنصب الخان أو المناصب العليا، وهو حق محصور لأبناء الخواتين⁽²⁾.

واستخدمت السبايا في تربية وتأديب وتعليم الأطفال، ونقل الجوزياني عن جوجي بن جنكيز خان تكليفه لمربية مسلمة لتربية ابنه بركة، فيقول "أعطوا هذا الطفل لمربية مسلمة، حتى تقطع سرتة مسلمة، ويرضع لبن مسلمة كي ينشأ مسلماً، فقد جعلت هذا الولد مسلماً"⁽³⁾، ويظهر في هذه العبارة مدى التأثير الحضاري الذي خلفته هذه الطبقة في أخلاق المغول ومدى إعجاب ملوك المغول بالنهج والتربية الإسلامية.

عوامل تماسك المجتمع المغولي:

على الرغم من توفر أسباب الانقسام والفرقة في المجتمع المغولي، من اختلافات عقائدية وعرقية ولغوية، إلا أنهم استطاعوا توحيد القبائل والشعوب الأخرى التي دخلت تحت حكمهم، ورسخوا قواعدهم واستمروا في تمددهم في شتى بقاع الأرض⁽⁴⁾، ويمكن استخلاص بعض العوامل التي ساعدت في استقرار المجتمع المغولي على النحو التالي:

1. قوة القانون:

تفطن جنكيز خان إلى المشاكل الاجتماعية القائمة في المجتمع المغولي مبكراً، فقد انتشرت في المجتمع ممارسات اجتماعية مشينة، من قتل وزنا وكذب، واعتماد السلب والنهب والسرقة منهجاً للحياة، قال الجويني "ولم يكن للمغول قبل خروج جنكيز خان رئيس أو حاكم، وكانت كل قبيلة أو اثنتين تعيشان منفصلتين لا تتفقان، النزاع والخصام قائم ومستمر بينهم، وكان بعضهم يعتبر السرقة والزور والفسق والفجور من الشجاعة والبطولة"⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ مفردة خاتون، وهي المرأة شريفة الأصل وتكون زوجة أو بنت الأمير، مسالك الأبصار، ابن فضل الله (70/3).

⁽²⁾ المصدر نفسه (111/3).

⁽³⁾ طبقات ناصري (165/2).

⁽⁴⁾ فاتح العالم، الجويني (62/1).

⁽⁵⁾ المصدر نفسه.

ما إن قام جنكيز خان بتوحيد القبائل في منغوليا حتى كتب قوانينه التي أقرها في مجلس القوريلتاي الأول⁽¹⁾، وأطلق عليها الياسا⁽²⁾، ونسخ ما كان لهم من عوائد مذمومة بأخرى محمودة مفهومة⁽³⁾، وكانت الحاجة إلى هذه القوانين من أجل لم شمل مجتمع مفكك، ضرورة ملحة لاستمرار الدولة، وقد حملت الياسا الكثير من القوانين التي ما إن طبقت حتى بدى الاستقرار والأمن المجتمعي لدى المغول واضحاً، فشعر الجميع بإيجابيات القوانين في ضبط مجريات الحياة والانتقال من حالة الفوضى والانفلات إلى حالة الاستقرار والازدهار والنمو، وأصبح المغول ينظرون إلى الياسا على أنها مقدسة من شدة ما لها من أثر واضح في حياتهم⁽⁴⁾. يقول ابن فضل الله "إنهم على ما هم عليه من الجاهلية؛ على السيرة الفاضلة الشاملة لأهل مملكته، ومن يرد إليها من الجافهم، بجناح العدل والإحسان"⁽⁵⁾، وقد خصصت ساعات يومية يجلس فيها الخان لسماع مظالم وشكاوى الرعية على العمال والجند⁽⁶⁾.

يقول الجويني في كتابه فاتح العالم عن قوة الالتزام بالقانون "ولم تكن أي طرق بحاجة إلى حراسة... قالوا إن المرأة كانت تمشي وحيدة حاملة طشتاً من الذهب فوق رأسها بلا خوف"⁽⁷⁾.

كما تطرقت قوانين الياسا إلى الممارسات المجتمعية الذميمة فجعل لكل ذنب عقوبة، فيقتل كل من زنى أو مارس فعل قوم لوط سواء كان محصن أم لا، ويعدم كل من مارس السحر والقتل والتجسس، ويقتل كل من تدخل في شئون القبائل الداخلية، كمن أطعم أسير أو كساه دون أدن أسريه، كما يقتل كل من ساعد هارباً، ويعاقب بالإعدام كل من تعمد الكذب أو أخفى شهادة⁽⁸⁾.

يتضح من تشديد العقوبات وفرض الإعدام في كل الجرائم المذكورة سابقاً، أن هذه الممارسات كانت منتشرة بشكل كبير أدت إلى معاناة المغول قبل توحيدهم، وأن التشديد في

(1) القوريلتاي هو اجتماع لتتصيب القآن. مسالك الأبصار، ابن فضل الله (129/3).

(2) الياسا: الأحكام والقانون وهي بالمغولية وهي كلمة مغولية تعني قانون، وهي ياسا وباسق وباسا، وهي مجموعة من القوانين التي وضعها جنكيزخان ليسيير عليها قومه. المصدر نفسه (99/3).

(3) المصدر نفسه (106/3).

(4) المصدر نفسه.

(5) المصدر نفسه (130/3).

(6) المصدر نفسه (132/3).

(7) (272/1).

(8) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (137/3).

العقوبات كان الغرض منه إنهاء هذه الظواهر، كما يمكن رسم صورة واضحة لما كان عليه المجتمع المغولي من انحراف وفتان، من خلال التمعن في نصوص القوانين.

2. قوة السلطة التنفيذية:

كثير من الدول تمتلك قوانين قوية، وشرائع مقدرة، لكن القانون دون سلطة تنفيذية تطبقه على أرض الواقع لا يعدو حبراً على ورق، وقد كانت السلطة التنفيذية المغولية قوية بحيث تنفذ كل ما أقرته الدولة من قوانين، ولولا المتابعة القوية من السلطات التنفيذية لقوانين الياسا؛ لعاد المجتمع المغولي إلى سابق عهده، كما أن القوانين كانت تطبق على كل الرتب والمناصب دون محاباة أو مراعات منصب، يقول ابن فضل الله "ومن جملة ياسهم أنه إذا كان أمير في غاية القوة والعظمة ... حتى أذنب ذنباً يوجب عقوبة، بعث إليه ولو من أخس أصحابه من يؤذ به بموجب ما يقتضيه ذنبه، ولو كان من ذنبه ما يوجب قتله، ألقى نفسه بين يديه ذليلاً، وأخذه الرسول بموجب جرمه حقيراً كان أو جليلاً"⁽¹⁾.

ويقول في موضع آخر "ولكل مذنّب عقوبة مقدرة، وعين حدوداً، لا إمهال له عندهم، ولا مغير"⁽²⁾ ويقصد بقوله هذا أن لا تأخير في تنفيذ العقوبة، ولا يمكن تغييرها بعد أن صدر القرار بها.

3. الحرية الدينية:

كان المجتمع المغولي متنوعاً في الأديان والمذاهب والفرق، وكان جنكيز خان متمسكاً بالديانة الشامانية،⁽³⁾ إلا أن أبنائه منهم من كان نصرانياً، أو يهودياً أو وثنياً، ومنهم من كان ملحداً⁽⁴⁾، ولم يشهد المجتمع المغولي أي تعصب لدين على حساب دين آخر، وكان جنكيز خان يحترم إلى حد التعظيم رؤساء كل أمة، ويعتقد بأن احترامهم وتقديرهم يقربه من الله عز وجل⁽⁵⁾، وقد كان لجنكيز خان اهتمام خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم، فقد كان يسأل الفقهاء وأهل الحديث المسلمين الذين يلقاهم أو يقعون بأسره عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم بشكل

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (109/3).

(2) المصدر نفسه (106/3).

(3) الشامانية ديانة وثنية لها طقوس الحرية متنوعة، وتعتقد بأرواح خير وأرواح شر وراء كل مرض أو حادث في الكون، والشامان هو كاهن أو ساحر القبيلة، له قدرة خارقة على التعامل مع الأرواح.

(4) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (105/3).

(5) المصدر نفسه (107/3).

مستمر⁽¹⁾، وذكر الذهبي وغيره من المصادر أن مستشاري جنكيز خان المقربين كانوا من المسلمين⁽²⁾، كما تم بناء المساجد والكنائس والمعابد البوذية داخل حدود الإمبراطورية المغولية⁽³⁾.

وأعفى كل من ثبت أنه من آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، والمتصوفين والفقهاء والزهاد والقائمين بالوظائف الدينية من الضرائب⁽⁴⁾.

كما سمح المغول للمسلمين بالتقاضي وفق الشريعة الإسلامية، فإن قتل مسلم كافر، لم يكن له دية، وإن قتل كافر مسلم قتل، يقول ابن فضل الله "ومن عجائب ما رأيت في مملكة هذا الخان الكبير، أنه رجل كافر، وفي رعاياه من المسلمين أمم كثيرة، وهم عنده مكرمون محترمون، ومتى قتل أحد من الكفار مسلماً، قُتل الكافر القاتل، هو وأهل بيته، وتتهب أموالهم، وإن قتل مسلم كافراً، لا يقتل وإنما يطلب بالدية، ودية الكافر عندهم حمار"⁽⁵⁾ -المقصود مال يعادل ثمن الحمار-.

إن شهادة ابن فضل الله العمري في هذا السياق تأخذ أهمية خاصة، حيث أن الروايات التاريخية التي تنقل عن تعامل المغول الجيد مع المسلمين، نقلت عن الجويني ورشيد الدين فضل الله الهمذاني، وكلاهما عمل في البلاط المغولي، ما قد يدعوا الباحث للشك في صحة كلامهما والتخوف من تحيزهما في الرواية، لكن شهادة ابن فضل الله العمري في هذا الموضع وغيرها من المواضع تحمل مصداقية أعلى خاصة بأن العمري من أبناء الدولة المملوكية، أي أنه يشهد بشمائل الخير في أعدائه، وقال العرب قديماً؛ "والفضل ما شهدت به الأعداء"⁽⁶⁾.

(1) طبقات ناصري، الجوزياني (139/2).

(2) العبر (165/3).

(3) طبقات ناصري، الجوزياني (166/2).

(4) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (107/3).

(5) المصدر نفسه (135/3).

(6) "وشمائل شهد العدو بفضلها والفضل ما شهدت به الأعداء" هو من قصيدة للشاعر العباسي السري الرفاء الموصلي (ت 976هـ=1569م)، يمدح فيها الحسن بن محمد المهلب، وكان أديباً يحب أن يجمع الأدباء حوله والندماء. انظر بيتيمة الدهر، الثعالبي (192/2).

4. الأمن وحرية التنقل والمواصلات:

يعد الشعور بالأمن من أهم مقومات استقرار الشعوب والتقدم والتنمية الحضارية بكافة مجالاتها؛ الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والعمرانية، مصداقاً لقوله تعالى "فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ"⁽¹⁾، وبرز اهتمام المغول في تأمين الجبهة الداخلية، حين عاث الحشاشين⁽²⁾ بالأرض فساداً بعملياتهم الخاصة، فكانوا يقومون باغتيالات وتصفيات جسدية، في شتى البقاع، وضد كل المذاهب، فتدخلت الدولة المغولية للقضاء على هذه الطائفة، بعد أن عجزت الخلافة الإسلامية عن إنهاء فساد هذه الطائفة، واستطاع منكو خان انهاء وجودهم في المناطق المجاورة لقزوين⁽³⁾ وجبالها⁽⁴⁾، كما اهتم المغول بالبريد ووضعه في كل مكان⁽⁵⁾، وقد استفاد منه المجتمع المدني رغم أنه مخصص للعمليات العسكرية والأمنية، وحفظت به خطوط التجارة والمواصلات، وكان التاجر يتحرك ببضاعته في كل أرجاء الإمبراطورية المغولية تحت حماية الدولة⁽⁶⁾.

5. تعزيز الروابط من خلال المصالح المشتركة:

لم يغفل جنكيز خان وأبنائه ما لأهمية المصالح المشتركة من أثر كبير في استقرار الحكم ومنع قيام أي ثورة داخلية، ولم يكتفي المغول بتوزيع غنائم الحروب والفتوحات على أبنائهم وعشيرتهم دون غيرهم، بل قام جنكيز خان بحنكته بالإحسان إلى كل من انفض عن أعدائه ودخل في حلفه ودولته، يقول ابن فضل الله "ثم شرع في الإحسان إلى جميع من رحل عن أونك خان، وباعده، واتصل به، وعاضده، وأفشى فيهم الإنعام.. حتى تتألفوا إليه أفواجا... فقوى بذلك أمره وإمارته، واشتدت شوكته ومهابته"⁽⁷⁾.

(1) (قريش: 4-5)

(2) هم الإسماعيلية والفرقة المقصودة هنا هم الصباحية أتباع حسن الصباح المسمى بشيخ الجبل، وآخر حكامهم خورشاة المعتزل سنة (655 هـ=1257م)، سكنوا قلاع أصفهان وقهسقان وأشهر قلاعهم آل موت. مسالك

الأبصار، ابن فضل الله(116/3).

(3) معجم البلدان، ياقوت (342/4).

(4) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (116/3).

(5) المصدر نفسه (110/3).

(6) طبقات ناصري، الجوزياني، (125/2).

(7) مسالك الأبصار(104/3).

فبهذا الأمر استطاع جنكيز خان السيطرة بسهولة على أتباعه واستطاع جمع حلفاء وأصدقاء كثير، سواء طمعاً في غنيمة أو خوفاً من هزيمة.

6. تقربهم من الرعية بالأخلاق الكريمة:

على خلاف ما ينقل بعض المؤرخين القدامى عن المغول وهمجيتهم وتعاملهم الوحشي، نقل ابن فضل الله العديد من المواقف والأحداث التي تتم عن حُسن معاشرة وأخلاق كريمة، فالمغول لا يجوز لديهم أن ينفرد فرد بطعامه، ولكن تقسم الأرزاق بالسوية، وإذا مر رجل يقوم يأكلون، فيجوز له الجلوس معهم دون استئذان⁽¹⁾، وكان التواضع سمة لتعاملاتهم فيما بينهم، وكانوا يكرهون التكلف في الكلام، وينادى الخان باسمه دون تفخيم، ويعفون أنفسهم عن مال الميت، وإن وجد مال لميت لا يؤخذ ولا يدخل خزينة الدولة، ولا يعطى إلا لوارثه، فإن لم يوجد وارث فيعطى المال لجيرانه ومعارفه⁽²⁾، وهم بشكل عام تغلب عليهم صفة الكرم، وكانت العامة تقصدهم لسؤال سداد دين أو طلب معونة فيعطونهم ما يزيد عن حاجتهم، ودخل رجل مسلم على منكوب بن تولوي بن جنكيز خان، وسأله المال ليحج إلى مكة فأعطاه مسألتة⁽³⁾، واهتم المغول بعمالهم وعبيدهم، فأكرمهم، وأطعموهم أفضل الطعام، وكانوا يكسونهم من ثيابهم، وإن ظهر على عبد ميل إلى الزواج زوجته⁽⁴⁾، وكانوا يجلسون للقضاء بين الناس والاستماع إلى حاجاتهم بشكل دائم⁽⁵⁾، ويمكن تفسير التعارض في الروايات التاريخية بين المؤرخين الثقاة عن حسن تعامل المغول، المؤرخين الذين كتبوا عن الشدة والهمجية إنما كتبوا عن المعارك والحروب، بينما كتب المؤرخين في الجانب المقابل عن سير الحياة المدنية داخل الدولة المغولية وعن التعامل مع مواطنين وليس الأعداء.

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (107/3).

(2) المصدر نفسه (108/3).

(3) المصدر نفسه (124/3).

(4) المصدر نفسه (125/3).

(5) المصدر نفسه (132/3).

المبحث الثاني: الدين العادات والتقاليد والأعياد

أولاً: الدين في المجتمع المغولي:

كان المجتمع المغول متعدد الديانات، لكن الشامانية هي دينهم الأول وهي عبادة الخان الأعظم ابن الإله المعبود⁽¹⁾، وكانت تؤمن بوجود الإله الأعظم، وهو خالق السماوات والأرض، المحيي والمميت، ودخلت النصرانية إلى القبائل المغولية مبكراً، وكان من المؤلف وجود العديد من الديانات في المعسكر المغولي الواحد، فتواجدت الوثنية، والنصرانية، واليهودية والإسلام، وعبد عدد من المغول الشمس والظواهر الطبيعية، وكان بعضهم ملحد⁽²⁾، كما ظهرت عبادة رب الأسرة، وهي أن يعبد الرجل في المنزل أو يعبد كبير العائلة⁽³⁾.

لم يعر المغول اهتمام كثير للدين، فالشخص حرّ في اعتناق أي دين، بشرط تطبيق قوانين الياسا التي اكتسبها قداسة عالية، وقد كان المسلمون كثيرون في بلاد الخطأ⁽⁴⁾، ولم يواجهوا أي منع من ممارسة شعائهم، بل عاشوا في أمن "لا تتطرق إليهم أذية في دين ولا حال ولا مال"، إلا أن محاولة ترماشيرين⁽⁵⁾ تطبيق الشريعة الإسلامية ونشرها⁽⁶⁾، لاقت سخطاً من المغول لأنه لم يطبق الياسا⁽⁷⁾.

يمكن القول بأن دولة المغول كانت دولة علمانية⁽⁸⁾، فصلت الدين عن السياسة، وشرعت قانونها ومذهبها الخاص "الياسا"، وهي تشبه إلى حد كبير دول وإمبراطوريات معاصرة، والتي حصرت الأديان في الأحوال الشخصية وفصلت الدين عن الحكم، ويصف الرحالة ماركو بولو الذي خدم في بلاط قبلاي خان زمن طويل هذه الحالة وتعظيم المغول لجنكيز خان بقوله

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (148/3).

(2) المصدر نفسه (105/3).

(3) رحلات، ماركو بولو (120/2).

(4) بلاد الخطأ، هي بلاد متاخمة لحدود الصين قاعدتها خان بالق - هي بكين عاصمة الصين حالياً، مسالك

الأبصار، ابن فضل الله (133/3).

(5) هو السلطان المعظم علاء الدين ترمشيري بن دوا بن براق بن آسن دوا بن موتكن بن جغتاي بن جنكيز خان حكم خانية جغتاي ما بين سنة (1326 - 1334 م). المصدر نفسه (148/3).

(6) المصدر نفسه.

(7) المصدر نفسه (145/3).

(8) علمانية: مذهب يُخرج الاعتبارات الدينية من العلاقات المدنية والتعليم العام "دولة علمانية". معجم اللغة،

مختار عمر (1545/2).

"ووقروه رباً معبوداً" ⁽¹⁾، أي أن قوانين جنكيز خان كانت بالنسبة لهم أعلى قيمة من أي دين آخر، وبالمقارنة بين تاريخ الإمبراطورية المغولية، والإمبراطوريات المعاصرة، تجد الكثير من نقاط التشابه والالتقاء في السياسات والأدوات والغايات، فكلا الجانبين فصل الدين عن الدولة ⁽²⁾، كما يوجد تشابه في السياسة الخارجية حيث أبقى الطرفين على كيانات دول قبلت بسيادة الإمبراطورية ودانت بالولاء لها، وكلاهما دمر كل من لم يقبل بأن يدخل تحت العباءة ⁽³⁾، كما أن كلا الطرفين استخدموا العملات الورقية بدل العملات المعادن (الذهب والفضة)، فاستخدم المغول ورق التوت بدل الذهب ⁽⁴⁾، ويستخدم العالم المعاصر العملات الورقية.

على عكس ما هو شائع عن العصر المغولي، شهد هذا العصر، توسعاً في نشر الدين الإسلامي، حيث بنيت الرباطات ⁽⁵⁾ والمدارس والأوقاف الإسلامية، في شتى بقاع الإمبراطورية المغولية، "وليس من بلد ولا سبيل مطروق ولا قرية أهلة إلا وفيها من الرباطات"، وكان في ما وراء النهر ⁽⁶⁾ وحده ما يزيد عن عشرة آلاف رباط ⁽⁷⁾، وكان منكوبن تولوي بن جنكيز خان على علاقة طيبة بالمسلمين رغم بقاءه على دينه، وقد منح المسلمين أموالاً لبناء خانقاه ⁽⁸⁾، ⁽⁹⁾ وانتشر الإسلام في بقاع لم يكن ليصلها إلا بشق الأنفس ⁽¹⁰⁾.

وكان باتو بن جوجي شقيق بركة خان، على علاقة طيبة مع المسلمين، ويقال أنه أسلم سراً، وشهدت دولته حرية كبيرة للديانة الإسلامية، فبنيت المساجد، وكثر في قبيلته المسلمين،

(1) رحلات (133/1).

(2) فاتح العالم، الجويني (66/1).

(3) المصدر نفسه (57/1).

(4) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (130/3).

(5) مفردة رباط وهو ملجأ الفقراء من المتصوفة. المصدر نفسه (151/3).

(6) هي منطقة تاريخية وجزء من آسيا الوسطى، تشمل أراضيها أوزبكستان والجزء الجنوب الغربي من كازاخستان والجزء الجنوبي من قيرغيزستان. أطلس العالم الإسلامي، أبو خليل (ص21).

(7) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (151/3).

(8) خانقاه وهي مكان تجمع الصوفية، وهي الأماكن التي يأوي إليها رجال التصوف لعقد مجالس الذكر والعبادة.

المصدر نفسه (54/3)

(9) تاريخ، البناكتي (434 / 1)

(10) فاتح العالم، الجويني (213/1).

وعلى صوت الأذان في معسكره⁽¹⁾، وكان يجمع المسلمين في جيشه ويبتهل إلى الله طالباً منه النصر قبل المعارك⁽²⁾.

واعترف أوكتاي بفضل المسلمين على المغول "إنهم إخواننا وأصدقائنا، وقد ظهرت قوة بلادنا بهم"⁽³⁾، وألغى هولاكو الضرائب عن بغداد⁽⁴⁾، كما أن جنكيز خان سمح للمسلمين بإظهار إسلامهم، وإعادة رفع الأذان، بعد أن منعهم كوجلك زعيم النايما⁽⁵⁾، وخيرهم بين النصرانية أو الوثنية⁽⁶⁾، وأحبب منكو خان مخطط دموي لقبائل الأويغور، فقد كانوا ينوون تنفيذ إغارة على مساجد لمسلمين في يوم جمعة وقتلهم بشكل جماعي⁽⁷⁾، ويمتدح الجويني أوكتاي بقوله "ورفرت رايات الإسلام خفاقة، حتى أقصى بلاد الكفر وديار الترك، التي لم يكن قد وصل إليها روائح دين الإسلام، وبني في محاذات معاهد الأوثان مشاهد الرحمن"⁽⁸⁾، واشتهر عن جوجي بن جنكيز خان عطفه على المسلمين، وعلاقاته الطيبة مع سلاطين الشام المسلمين⁽⁹⁾.

إلا أن الأمر لم يكن على إطلاقه، فكان جغتاي بن جنكيز خان يكره المسلمين ويزدريهم، وكان أشد أبناء جنكيز خان تمسكاً بالياسا، وكان شديد الضيق من نفوذ المسلمين في البلاط المغولي، وسعى بشكل متكرر للخلاص منهم بثتى الطرق والحيل⁽¹⁰⁾، ونقل الجوزياني خبر مفاده أن جغتاي هو من وشى بجوجي عند والده جنكيز خان وأغرى والده بأن يقتله بالسهم، حيث نقل إلى والده نية جوجي الاستقلال بالحكم، وادعى نية جوجي قتل والده، وكان الأخير لا يعجبه تدمير جنكيز خان بلاد خوارزم بالكامل⁽¹¹⁾.

كما أن جغتاي منع الذبح على الطريقة الإسلامية، وأمرهم بأكل الميتة، ومنع المسلمين من الصلاة في بلاده، وكان سيفه مسلطاً على رقاب المسلمين، ويعتقد أن جنكيز خان مال إلى

(1) طبقات ناصري، الجوزياني (190/2).

(2) فاتح العالم، الجويني (271/1).

(3) طبقات ناصري، الجوزياني (171/2).

(4) فاتح العالم، الجويني (73/1).

(5) ملك قبيلة النايما، حاربه جنكيز خان. المصدر نفسه (94/1).

(6) المصدر نفسه (96/1).

(7) المصدر نفسه (83/1).

(8) المصدر نفسه (213/1).

(9) المصدر نفسه (268/1).

(10) طبقات ناصري، الجوزياني (168/2).

(11) المصدر نفسه (164/2).

وضع اوكتاي في ولاية العهد، وتجنب وضع جغتاي خوفاً من تسبب حقد جغتاي على المسلمين في إنهاء دولة المغول من الداخل، بالأخص أن البلاط المغولي كان يعتمد بشكل كبير على الخبراء والمستشارين والكتاب المسلمين في عهده.⁽¹⁾

ومن الممكن أن يكون حقد جغتاي على المسلمين بسبب مقتل أحد أبنائه في القتال مع المسلمين، وكان هذا الابن أحب أحفاد جنكيز خان له، ومن شدة غيظه على قتل ابنه، أمر بمنع الأسر وقتل كل من كان في المعركة التي شهدت مقتله، يقول الجويني "ولم يأخذوا منهم أسرى حتى أنهم لم يتركوا الأجنة في بطون أمهاتهم"⁽²⁾.

وكان كيوك ابن اوكتاي نصراني الديانة، متأثراً بدين والدته⁽³⁾، وحين استلم الحكم بعد وفاة والده، قام بتغيير وزرائه، فأسند الوزارة إلى النصارى، فقويت شوكتهم، وضعف حضور المسلمين في البلاط، ما كان له أثر على تدهور أوضاع الحريات الدينية عند المسلمين في البلاد⁽⁴⁾.

وشهدت أراضي بركة خان حوادث عنف متبادل بين المسلمين والنصارى، وقد تدخل بركة أكثر من مرة لتهدئة الأوضاع، وكان النصارى يحاولون منع تمدد الدين الإسلامي بين أبنائهم، وحدث أن قتل شاب حديث الإسلام على يد أهله النصارى، ما سبب وقوع فتنة بين المسلمين والنصارى، ما استدعى تدخل السلطات المحلية في دولة بركة خان والقيام بحملة على النصارى⁽⁵⁾.

وقام شخص يدعى نايان وكان مقرباً من قوبلاي خان بثورة نصرانية، واستقل عن الإمبراطورية وأعلن دولته، ورفع رايته والصليب يعلوها، ولم يستطع قوبلاي القضاء عليه إلا بمعارك قوية شهدت قتلة كثر في الجيشين⁽⁶⁾.

(1) طبقات ناصري، الجوزياني (164/2).

(2) فاتح العالم (156/1).

(3) طبقات ناصري، الجوزياني (188/2).

(4) تاريخ، البناكتي (429/1).

(5) طبقات ناصري، الجوزياني (229/2).

(6) رحلات، ماركو بولو (16/2).

ثانياً: تأثير السياسة بالدين في العصر المغولي:

بقيت الياسا هي محل الاجماع الأساسي في الإمبراطورية المغولية، فيصف ابن فضل الله ذلك بقوله "أحوال بني جنكيز خان متقاربة في ممالكهم، لمشيهم على ياسة جنكيز خان، ولا تكاد تمتاز أهل مملكة من ممالكهم عن الآخرين إلا فيما قل"⁽¹⁾، لكن هذه الاجماع والتوافق لم يدم طويلاً، فمع اضطرار المغول للاستعانة بخبراء ومستشارين في التجارة والصناعة والعمارة والاقتصاد، كثر الغرباء في البلاط المغولي، وفتح الباب لنفوذ وأقطاب جديدة داخل الدولة المغولية، كانت بخلفيات دينية متنوعة، فظهر التأثير الإسلامي في قرارات أوكتاي⁽²⁾، وجوجي⁽³⁾، وباتو⁽⁴⁾، ومنكو⁽⁵⁾، وبركة خان⁽⁶⁾، وظهر التأثير النصراني لدى كيوك بن أوكتاي⁽⁷⁾، فيما بقي جغتاي متمسكاً بشدة بياسة والده، وحاول التقليل من نفوذ المسلمين في الدولة بطرق شتى⁽⁸⁾.

وكانت الخلفية الدينية للمستشارين والطاقم الوزاري ذات تأثير كبير على الحياة والحرية العامة في الدولة المغولية، فبمجرد أن تولى كيوك بن أوكتاي الحكم بدل والده، قام بتغيير طاقمه الوزاري وأعفى المسلمين من مهامهم، وقرب اليه وزراء نصاري، ما انعكس سلباً على المسلمين في المجتمع المغولي⁽⁹⁾، وكان والده -أوكتاي- من قبله يميل إلى آراء وزرائه المسلمين وشهد المسلمين في عهده حريات كبيرة، فتوسعت الدعوة الإسلامية بشكل كبير وبلغت أطراف الأرض⁽¹⁰⁾.

(1) ابن فضل الله، مسالك الأبيصار (154/3).

(2) طبقات ناصري، الجوزياني (171/2).

(3) فاتح العالم، الجويني (268/1).

(4) طبقات ناصري، الجوزياني (190/2).

(5) فاتح العالم، الجويني (83/1).

(6) طبقات ناصري، الجوزياني (165/2).

(7) المصدر نفسه (188/2).

(8) المصدر نفسه (168/2).

(9) فاتح العالم، الجويني (262/1).

(10) المصدر نفسه (213/1).

واستطاع بركة خان بما له من قوة نفوذ في دولة أخيه منكو أن يوقف زحف هولاكو إلى بغداد، وتأجيل سقوط الخلافة عامين كاملين⁽¹⁾، واستمر التأثير الإسلامي في الدولة المغولية بالصعود حتى أعلن محمود غازان⁽²⁾ أن الدين الإسلامي هو الدين الرسمي للدولة⁽³⁾.

ثالثاً: المغول والعادات والتقاليد:

1. عادات الطعام والشراب

اعتمد المغول في بداية أمرهم على لحوم الحيوانات وألبانها كغذاء أساسي، ولم يفرقوا بين لحوم الخراف أو الكلاب أو الفئران، وكانوا لا يتوانون عن أكل لحم الميتة⁽⁴⁾.

كانت لهم طريقة خاصة في ذبح المواشي، ولم تكن الذبائح لديم بالطريقة المعهودة عند المسلمين، ولكن يشق بطن الدابة، ثم يدخل أحدهم يده إلى أن يصل قلبها فيعصره حتى تموت، وتمنع الياسا المغول من الذبح على الطريقة الإسلامية⁽⁵⁾.

ولا يجوز لديهم أن ينفرد فرد بطعامه، ولكن تقسم الأرزاق بالسوية، وإذا مر رجل يقوم يأكلون، فيجوز له الجلوس معهم دون استئذان، ولا يجوز الأكل من الطعام، إلا أن يأكل منه من أعده قبل الجميع، ولا يرمى الطعام رمياً إلا أن يحمل برفق ويناول باليد، ويمنع أن يخطو أحد فوق الطعام⁽⁶⁾.

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (116/3).

(2) محمود غازان بن أبغا هو محمود قازان بن آباقا صاحب العراقين وخراسان وفارس وآذربيجان والروم، اسلم وحسن إسلامه سنة (694 هـ=1295م)، وفشا الإسلام في المغول، طرق الشام وغلب عليه، مات قرب همدان سنة (703 هـ=1304 م) المصدر نفسه (119/3).

(3) تاريخ، البناكتي (482/1).

(4) فاتح العالم، الجويني (62/1).

(5) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (107/3).

(6) المصدر نفسه.

كما انتشر شرب الخمر لدى المغول بشكل كبير⁽¹⁾، وقد أوصى جنكيز خان أبنائه بالبعد عن الخمر⁽²⁾، وكان هولاء يتجنب شرب الخمر حتى لا يشغله عن ملكه، ويقول للمسلمين " لقد أعجبني من نبيكم تحريمه"⁽³⁾.

تحدث ابن فضل الله عن وجود مطاعم في بلاد الخطأ، حيث يطبخ فيها ما يطلب الزبون، ويعد فيها أماكن لاستقبال الضيوف، مقابل بدل مالي من صاحب الوليمة⁽⁴⁾.

في المقابل تحدث عن قبائل في أقصى شمال الإمبراطورية، تعيش في شدة وقحط، فيقول "وهم لشدة ما بهم من سوء الحال إذا وجد أحدهم لحماً سلقه ولم ينضجه، وشرب مرقه، وترك اللحم ليأكله مرة أخرى، ثم يجمع العظام، ويعاود سلقها مرة أخرى، ويشرب مرقها، وقس على هذا بقية عيشهم"⁽⁵⁾.

2. العادات والأعياد والمناسبات والمراسم:

يحتفل المغول في كل عام بيوم يطلقون عليه " بنكلميشى"، ويرتبط هذا العيد بالأسطورة المغولية التي تقول أنهم اختبئوا في جبل لمدة أربعمئة عام، حتى كثروا وتناسلوا، فلما أرادوا الخروج من الجبل وجدوا حاجز من الحديد، فقاموا بإشعال كميات كبيرة من النار، وأذابوا الحديد وخرجوا، ويتم في هذا اليوم إحضار قطعة من الحديد وإدخالها في النار ويطرقون عليها بالمطارق، بمراسم احتفالية⁽⁶⁾.

ويحتفلون بيوم مولد الخان، ويخرج الخان في هذا اليوم للقاء العامة من الناس كل عام، وتشهد البلاد في هذه اليوم مراسم الأعياد⁽⁷⁾.

ومن عادة المغول أن لا يسمى الابن إلا بعد اشتداد عوده، خوفاً من الحسد والسحر⁽⁸⁾.

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (210/3).

(2) تاريخ، البناكتي (1/ 412).

(3) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (503/10).

(4) المصدر نفسه (3/ 136).

(5) المصدر نفسه (3/ 178).

(6) تاريخ، البناكتي (1/ 400).

(7) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (137/3).

(8) تاريخ، البناكتي (1/ 498).

ويحتفل المغول برأس السنة حسب تقويمهم الخاص، حيث أن أول يوم في تقويمهم يكون الموافق لليوم الأول من شهر فبراير، شباط، ويتم في هذا اليوم ارتداء الملابس البيضاء وتبادل التهاني وتوزيع الهدايا مغلفة باللون الأبيض، وهو لون الفأل الحسن لديهم⁽¹⁾.

ويحظى موسم الصيد لديهم بمراسم خاصة، حيث تنقل خيام العائلة المالكة إلى منطقة الصيد، ويتم عمل حلقات كبيرة يتم فيها الغناء واللهو، ويحضر الموسم كل الأبناء والمقربين، ويجاور الخان فيها أطبائه ومنجموه ورؤساء حربه⁽²⁾.

وتتصيب الخان يتم بعد اجتماع القوريلتاي الذي يجمع كل الإخوة والأبناء من الخواتين، ويتم ترشيح أحد أبناء العائلة ويتم بعدها التصويت عليه واختياره بناءً على الإجماع، وفي عادة المغول يقوم المرشح بالرفض والتعذر بوجود من هو أحق منه من أعمامه أو إخوته، وبعد اقناعه يتم إجلاسه على العرش، ثم يخرج الجميع للسجود للشمس ثلاثة مرات، وتستمر الاحتفالات مدة أربعين يوماً يتم خلالها توزيع الذهب والمكافآت على جميع الحضور بالتدرج حسب الرتبة والمنصب، كما تتم الاحتفالات ومجالس الطرب والغناء وموائد الطعام أرجاء العاصمة طوال المدة⁽³⁾.

يراعي المغول أن توافق الأيام التي يتم فيها التنصيب أيام الخير حسب توصيف الشامان الخاص بهم، ويتم تأجيل التنصيب إلى أن يوافق الشامان⁽⁴⁾.

استمرت هذه العادات حتى وصل محمود غازان إلى الحكم، فأبطل مجالس الغناء واستبدلها بتلاوة القرآن وأداء العبادات طوال ثلاثة أيام⁽⁵⁾.

ومن عاداتهم البكاء والعيول على الميت لمدة شهر كامل⁽⁶⁾، ويتم ارتداء ملابس خاصة بالحداد⁽⁷⁾، ويدفن موتاهم في أماكن مخفية، فيحفر القبر وتنزل جثة الميت مع كثير من الأواني، والأطعمة، والجواري والعبيد لخدمته، وأمواله وسلاحه، ثم يتم تغيير معالم المكان حتى لا يستدل

(1) رحلات، ماركو بولو (49/2).

(2) المصدر نفسه (59/2).

(3) فاتح العالم، الجويني (200/1-202)؛ البناكتي، تاريخ (1/ 420).

(4) المصدر نفسه.

(5) تاريخ، البناكتي (484/1).

(6) فاتح العالم، الجويني (216/1).

(7) تاريخ، البناكتي (497/1).

عليه⁽¹⁾، واستمر الحال في هذه المراسم إلى أن أبطلها محمود غازان أيضاً، وغير مراسم وطرق الدفن إلى الطريقة الإسلامية⁽²⁾.

كما يوجد في عاداتهم تقديم القرابين للآلهة ليتم حفظ مقدم القربان من الشرور، ويتم في أحد المواسم، منع العامة من شرب لبن الأفراس، ثم يجمع بكميات كبيرة، وينثر في الهواء، في اليوم الموافق 28 أغسطس، آب من كل عام، ويسمى هذا القران بقران اللبن⁽³⁾.

3. النظافة الشخصية واستخدام الماء :

للمغول عادات خاصة للتعامل مع الماء، فلا يجوز لأي شخص أن يضع يده فيه، ولكن يأخذ منه بغمه، ثم يغسل وجهه ويديه من الماء الذي في فمه⁽⁴⁾.

ويمنع نزول الأشخاص في الماء الجاري من أنهار وجدول في فصل الربيع⁽⁵⁾، ولا يغسلون ثيابهم أبداً⁽⁶⁾، ويعتقدون أن وجود ثوب مغسول في الصحراء يسبب البرق، ومن عاداتهم الصمت عند حدوث الرعد والبرق، وإن أصاب البرق أحدهم يخرجونه من القبيلة لمدة ثلاثة سنوات ولا يأكلون من طعامه، وإن أصاب البرق حيواناتهم يخرجونها من القبيلة عدة أيام⁽⁷⁾، ويمنع التبول على الرماد، ويقتل من يتبول في الماء⁽⁸⁾.

4. التنجيم والسحر وأساليب التداوي والعلاج:

ارتبط التنجيم⁽⁹⁾ ارتباطاً وثيقاً بالتاريخ المغولي والديانة الشامانية، فأمن المغول بتأثير الكواكب والنجوم على مجريات الأحداث، وربطوا تحركاتهم وخططهم بها، فلا يتم اختيار أيام التحرك للمعارك إلا بعد دراسة حركة الكواكب، وكما كان يتم تأخير تنصيب الخان أيام عديدة

(1) طبقات ناصري، الجوزياني (191/2).

(2) تاريخ، البناكتي (497/1).

(3) رحلات، ماركو بولو (161/1).

(4) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (107/3).

(5) فاتح العالم، الجويني (216/1).

(6) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (108/3).

(7) فاتح العالم، الجويني (216/1).

(8) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (106/3-107).

(9) علم التنجيم: علم يبحث في تأثير حركات النجوم على مجرى الأحداث، ويستخلص منها تنبؤات مستقبلية ذات تأثير مزعوم على حياة الناس، وطباعهم. معجم اللغة، مختار عمر (2173/3).

لحين توفر "طالع يوم سعيد"، كما حاولوا تحديد أيام ولادة أبنائهم حسب الأيام التي يكون فيها الحظ أوفر⁽¹⁾ -على حد زعمهم-.

كان جنكيز خان لا يتحرك قبل استشارة الشامان⁽²⁾، الذي كان يستخدم أساليب عديدة بالإضافة إلى التنجيم " للإطلاع على الغيب"، منها حرق كتف ماعز والنظر فيه.⁽³⁾

وكان جنكيز خان ينوي مهاجمة الهند أكثر من مرة، لكنه تراجع بعد نصيحة من شامانه⁽⁴⁾.

وقد تنبأ المنجمون المغول بعدة أحداث في عهد جنكيز خان فحدثت فزادت الثقة بهم بشكل كبير⁽⁵⁾، فقبل بدء المعركة بين جنكيز خان وأونك خان، خرج الشامان إلى وسط الميدان، وقام بالعديد من ممارسات الشعوذة، ثم ادعى أنه شاهد النصر حليف جنكيز خان، فارتفعت معنويات الجند وقاتلوا حتى تحققت النبوءة⁽⁶⁾.

وكان سبب إسلام غازان خان، أن رجل من معاونيه أبلغه بأن العلماء المسلمين، والمنجمين المغول يقولون بأن الله سيعيد للمسلمين مجدهم في الأعوام التي تلي عام (690هـ=1291م)، وحبب إليه فكرة الإسلام حتى ينال هذا الشرف، وتكون له قيادة المسلمين في زمن مجدهم⁽⁷⁾.

في الوقت الذي كان الشامان يحظى باحترام كبير، كانت عقوبة من يستخدم السحر هي الإعدام، ويبدو أن المغول فرقوا بين ممارسات السحر الذي يهدف إلى الاطلاع على الغيب، وبين السحر الذي يضر بالأشخاص، وقد كانت الممارسات السحرية منتشرة في المجتمع المغولي بشكل كبير، واستخدم السحر في الخصومات الشخصية، والمكائد والعداوات.⁽⁸⁾

(1) تاريخ: البناكتي (503/1).

(2) الشامان هو الفقيه بعلم استحضر الشياطين المسخرة له والتي تخبره بالأخبار والغيبات. الجويني، فاتح العالم (92/1).

(3) المصدر نفسه.

(4) طبقات ناصري، الجوزياني (141/2).

(5) فاتح العالم، الجويني (134/1).

(6) رحلات، ماركو بولو (134/1).

(7) تاريخ، البناكتي (482/1).

(8) كانت من الرقيق، مقربة من توراكيينا خاتون زوجة اوكتاي ووالدة كيوك، كانت تتمتع بنفوذ كبير في القصر، ظناً منهم أنها من بن أبي طالب. فاتح العالم، الجويني (252/1).

وأعدمت فاطمة خاتون⁽¹⁾ على يد كيوك خان بتهمة ممارسة السحر، إلا أن السبب الحقيقي لإعدامها هو السعي للتخلص من النفوذ الإسلامي بالقصر المغولي، ويؤكد ذلك إصدار حكم بإعدام كل من كانت له علاقة بها⁽²⁾.

وكان لدى المغول علم يطلق عليه "الياي"⁽³⁾ وهو حسب زعمهم علم استتزال المطر والثلج من السماء بغير موعده، ويدعون أنهم استخدموا هذا العلم في العمليات العسكرية ضد أعدائهم⁽⁴⁾.

وكان من عادة المغول قراءة التعاويذ السحرية للرقية من الأمراض، وكانوا يحضرون المريض ويغسلونه في حوض ماء مصنوع من الخشب ثم يسقون الماء للحاضرين⁽⁵⁾.

كما أنهم كانوا يتداوون من الأمراض الجلدية بمياه الأنهار الدافئة⁽⁶⁾، ويتم علاج العيون بقطرات مصنوعة من حجر الأثمد المتوفر في الطبيعة⁽⁷⁾.

واستفاد المغول من الأطباء المسلمين، وكان الطبيب يرافق الخان في كل تحركاته، وكان لديهم أطباء متخصصين بالجراحة، بالإضافة إلى التخصصات الأخرى⁽⁸⁾.

5. الصيد:

يعد الصيد من أهم عادات المغول المتجذرة بقوة، وحرص جنكيز خان وأبنائه على الخروج بشكل دوري للصيد، وكانت مدة الصيد ثلاثة أشهر من كل عام، يتم خلالها التفرغ الكامل من الأعباء والمهام الأخرى، وكانت له طقوس خاصة، فيتم عمل دائرة قطرها عدة أميال، ويتم تضيق الحلقة رويداً رويداً، وحصر الحيوانات بكافة أنواعها داخلها، ولا يتم البدء بالصيد إلا حسب تعليمات الخان، وبعد تضيق الحلقة على الحيوانات يتم مد الحبال بين الخيام لمنع هرب

(1) فاتح العالم، الجويني (252/1).

(2) المصدر نفسه.

(3) يزعم المغول أنه حجر له خواص خارقة ينتج عن احتكاكه بطريق خاصة انتاج عواصف ثلجية ويطلقون على من يجيد استخدامه اسم بايجي. المصدر نفسه (206/1).

(4) المصدر نفسه.

(5) تاريخ، البناتكي (433/1).

(6) رحلات، ماركو بولو (83/1)؛ ابن فضل الله، مسالك الأبصار (192/3).

(7) رحلات، ماركو بولو (86/1).

(8) تاريخ، البناتكي (463/1).

أي حيوان، وبعد صدور القرار ببدء الصيد يتم حصد أرواح كافة الأنواع المفترسة وغير المفترسة، ثم يتم عبر مراسم احتفالية إطلاق عدد قليل من كل نوع، لمنع انقراض الحيوانات وبقاء تناسلها.⁽¹⁾

ويعد خروج المغول للصيد تمرين عسكري متكامل، يتم خلاله فحص جهوزية خطوط المواصلات وطرق الاتصالات والتواصل، ورفع الروح المعنوية والقوة البدنية للجنود والقادة، وإدامة ارتباط الجيش بسلاحه، ورفع الكفاءة القتالية بشكل عام، وإطلاع الخان على مكان قوة القادة وضعفهم، وانتخاب أفضل الكفاءات لقيادة الجيوش والحملات العسكرية⁽²⁾.

6. عادات القتل الغريبة:

للمغول طرق غريبة في القتل والانتقام من الأعداء بالعديد من الطرق والأساليب، ساهمت في رسم صورة وحشية مرعبة عنهم، وأكسبتهم دعاية ومهابة في صدور أعدائهم، وكان الرعب يسبق الجيش المغولي بمسير أيام، وكان وصول خبر تحرك جيش المغول باتجاه مدينة أو دولة، كفيل بنشر الرعب والفرع وبدأ حركة نزوح كبيرة.⁽³⁾

ومن هذه الطرق ما استخدمه باتو بن جوجي حين حاول كيوك بن أوكتاي عزل ولاته من مناصبهم، حيث قام بإلقاء القبض على القائد الخاص بتنفيذ أوامر كيوك، وقام بوضعه بقدر وسلقه كما يسلق الطعام⁽⁴⁾.

وفي إحدى حملات باتو قام بإصدار أوامر بقطع الأذن اليمنى من كل أسير، فقام الجيش بقطع مئتين وسبعون ألف أذن⁽⁵⁾.

وإذا غضب المغول على أحد من أتباعهم أو اكتشفوا سارق، صادروا أمواله، وأخذوا منه أبنائه وباعوهم في أسواق العبيد⁽⁶⁾.

⁽¹⁾ تاريخ، البناكتي (1/ 426)؛ ابن فضل الله، مسالك الأبصار (110/3-111).

⁽²⁾ المصدر نفسه.

⁽³⁾ مسالك الأبصار، ابن فضل الله (114/3).

⁽⁴⁾ المصدر نفسه.

⁽⁵⁾ فاتح العالم، الجويني (1/ 270).

⁽⁶⁾ مسالك الأبصار، ابن فضل الله (183/3).

ومن عاداتهم استخدام سياسية القتل البطيء فقد استخدموا هذه الطريقة مع الملك الصالح ابن بدر الدين لؤلؤ⁽¹⁾ بعد أن خرج عن طاعتهم والتحق بطاعة المماليك، فأمسكوا به ولفوه بالجلد والحبال، وألقوه في حر الشمس أسبوع، ثم قطعوا جسده وأكلوه وهو حي حتى مات بعد شهر من العذاب، وكان له ابن في الثالثة من عمره؛ فشقوه نصفين وعلقوه في الموصل⁽²⁾.

كما أن منكو بن تولوي خان حين أحبط مخطط قبائل الأويغور، الذين كانوا ينوون تنفيذ إغارة على مساجد لمسلمين في يوم جمعة وقتلهم بشكل جماعي⁽³⁾، قام بتنفيذ الإعدام بحق مخططي الحدث، فأمر الأخ بقطع رقبة أخيه، ثم قام بشق اثنين آخرين من منتصف أجسادهم وعلقهم أمام الناس⁽⁴⁾.

واستخدم المغول طريقة الخنق بالقوس⁽⁵⁾، واللف بالجلد والحبال حتى يتكسر العظم، أو اللف بالجلد والإغراق بالماء، كما فعل كيوك مع فاطمة خاتون⁽⁶⁾.

وأمر جغتاي جيشه بعد انتهاء المعارك في سمرقند، ببقر بطون كل القتل، بعد أن أقرت إحدى الأسيرات بأنها ابتلعت جواهر، لتخفيها منهم⁽⁷⁾.

وحين علم أوكتاي بقيام قبيلة أويرات بتزويج بناتهم من أعداء المغول، جمع كل الفتيات اللاتي بلغن السابعة من العمر فما فوق، وأمر باغتصابهن أمام آبائهن، وإخوانهن، وكان عددهن أربعة آلاف فتاة⁽⁸⁾.

(1) السلطان بدر الدين أبو الفضائل لؤلؤ الأرمني النوري الأتابكي مملوك السلطان نور الدين أرسلان كان من أعز ممالك نور الدين، دخل طاعة هولاكو، حكم الموصل نيابة عنه، خلفه من بعده ولده الصالح اسماعيل، فزوجه هولاكو ابنته، ثم خرج عن طاعته ووالى المماليك فقتلوه واستباح الموصل. سير الأعلام، الذهبي (484/16).

(2) تاريخ، البناكتي (455/1).

(3) فاتح العالم، الجويني (83/1).

(4) المصدر نفسه (86/1).

(5) تاريخ، البناكتي (469/1).

(6) فاتح العالم، الجويني (252/1).

(7) المصدر نفسه (152/1).

(8) المصدر نفسه (242/1).

المبحث الثالث: المرأة المغولية

تمتعت المرأة المغولية بحضور قوي في المجالات السياسية والاجتماعية والعسكرية، وعلى خلاف حضارات وأمم كثيرة، شاركت المرأة المغولية في صناعة القرار السياسي، من خلال المشاركة في مجلس القوريلتاي، وانتخاب رئيس الدولة، والدخول في المشاورات وصنع القرار، كما استطاعت الوصول إلى سدة الحكم والقيام بواجبات الخان بالكامل، وقامت المرأة المغولية بكل ما يقوم به الرجل من واجبات اجتماعية أو خدمة عسكرية ومدنية في حال غياب زوجها أو سفره، كما تقوم بدورها في بيت الزوجية وتحمل الكثير من الأعباء⁽¹⁾.

أولاً: الدور الاجتماعي للمرأة عند المغول:

لعبت المرأة في الحياة الاجتماعية المغولية دور كبير، وشاركت الرجل في كثير من المهام، وكان على الزوجة الصالحة في عرف المغول أن تقوم مقام زوجها في حال سفره أو بعده، وتستقبل ضيوفه بالنيابة عنه، وتحسن طهي الطعام، يقول جنكيز خان "إن خير الرجل يعرف من خير المرأة"⁽²⁾، كما تقوم بكل الواجبات المطلوبة من زوجها تجاه الدولة من خدمة عسكري ومدنية، وتدفع الضرائب⁽³⁾.

ومن عادة المغول كثرة النساء للرجل الواحد، ويرتفع قدر الولد برفعة نسب والدته، فكلما ارتفع شأن عائلة الزوجة، ارتفع قدر ابنها في قبيلته وبين إخوانه وأهله⁽⁴⁾.

وكان للمرأة الحق في إبداء الرأي في زواجها، فترفض الزواج إن لم يعجبها، فرفضت بغداد خاتون الزواج من أبو سعيد بهادر⁽⁵⁾ مراراً قبل اقتناعها بالموافقة⁽⁶⁾.

كما كان الطلاق والتفريق موجود في عرفهم إن لم يتم التوافق بين الزوجين⁽⁷⁾.

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (109/3-111).

(2) تاريخ، البناكتي (413/1).

(3) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (109/3).

(4) المصدر نفسه (111/3).

(5) السلطان أبو سعيد بهادر آخر سلاطين الإيلخانيين (736 هـ = 1336م) وهو ابن السلطان أولجايتو، حكم العراق وخراسان وأذربيجان والروم والجزيرة. أعيان العصر، الصفدي (68/2).

(6) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (218/3).

(7) تاريخ، البناكتي (431/1).

في المقابل وعلى النقيض من المكانة العالية التي وصلت لها النساء في العاصمة، فإن العامة من الناس في أقصى شمال الإمبراطورية كانوا يبيعون بناتهم في الأزمات⁽¹⁾، وإن خطبت ابنة الرجل، فإنه يأخذ من الخاطب مبلغاً من المال، ثم لا يعود يسأل عن ابنته⁽²⁾.

ومن عادة المغول الزواج من الفتيات قبل البلوغ، ولا يجامعها زوجها إلا بعد البلوغ، كما لم يكن من المستغرب وفاة الزوج وزوجته بكر، دون أن يغشاها، بأسباب عدة، منها أنها تكون صغيرة عند موته، أو بسبب كثرة عدد النساء والسراري للرجل الواحد⁽³⁾.

كما أن الأبن الأكبر بعد وفاة والده يرث كل نساء والده، ويحق له الزواج منهن جميعاً باستثناء والدته⁽⁴⁾.

وكانت الحرية الدينية مكفولة للمرأة، فقد تسلم المرأة دون مشورة من زوجها⁽⁵⁾، وكانت نساء المغول متنوعات الديانات ما بين نصرانية، ومسلمة، وشامانية، وغير ذلك⁽⁶⁾.

والمرأة المغولية تعد سفيرة سلام بين القبائل والدول، فتزويج البنات من أبناء القبائل الأخرى أو ملوك دول، يعد تعزيزاً للروابط بالمصاهرة⁽⁷⁾.

واستخدمت النساء كورقة ضغط، وأحياناً كإذلال لأهلهم وقبائلهم، كما فعل أوكتاي بن جنكيز خان، بجمع كل الفتيات في قبيلة أويرات اللاتي بلغن السابعة من العمر فما فوق، وأمر باغتصابهن أمام آبائهن وإخوانهن، وتم استرقاقهن وتوجيه عدد منهن للعمل في خدمة البلاط المغولي⁽⁸⁾.

وتحترم المرأة المتزوجة في عرف المغول، فلا يمكن معاشره سبية أياً كان دينها إذا كانت متزوجة⁽⁹⁾.

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (179/3).

(2) المصدر نفسه (183/3).

(3) تاريخ، البناكتي (1/470).

(4) فاتح العالم، الجويني (1/248-249).

(5) تاريخ، البناكتي (1/431).

(6) المصدر نفسه (1/434)؛ ابن فضل الله، مسالك الأبصار (111/3).

(7) تاريخ، البناكتي (1/458).

(8) فاتح العالم، الجويني (1/242).

(9) طبقات ناصري، الجوزياني (2/159).

واستخدمت السبايا في الرضاعة وتربية الأبناء، وكان يتم اختيار المربية بعناية، وفي كثير من الأحيان، تكون المربية مسلمة ذات علم وفصاحة، لينتقل علمها للطفل، فمربية بركة خان، في طفولته كانت مسلمة⁽¹⁾، كما كانت مربية غازان خان مريم خاتون مسلمة صاحبة علم وفصاحة لسان⁽²⁾.

حظيت نساء المغول بالاستقلال المالي، فالمرأة المغولية هي من تقوم على التجارة وبيع منتجاتها أو شراء ما يلزم المنزل من الأسواق⁽³⁾، وكانت مخصصات الخواتين تفوق مخصصات الوزراء، فكان الراتب السنوي للخاتون مليوني دينار ذهبي، في حين أن راتب الوزير بلغ مليون ونصف مليون دينار⁽⁴⁾، كما كانت تقسم العطايا والهبات بين الأمراء والخواتين دون استثناء أحد⁽⁵⁾.

ثانياً: دور المرأة المغولية في الحياة العامة:

كانت مشاركة المرأة المغولية في السياسة والحكم مشاركة فعلية حقيقية، لا تقل عن نسبة مشاركة الرجل، فتصدر الخاتون قرارات مع زوجها⁽⁶⁾، وفي ديباجة كل قرار يكتب "ما أتفق عليه الخواتين والأمراء"⁽⁷⁾.

ومارست النساء السلطة القضائية والتنفيذية، فإن حدثت قضية قتل مثلاً في منطقتها تتولى الحكم فيها دون الرجوع إلى الخان⁽⁸⁾.

كما شاركت الخواتين في الاحتفالات والتجمعات والمؤتمرات الرسمية، وتخصص للخواتين أماكن وخيام خاصة بهن⁽⁹⁾.

وكان احترام الخواتين كبير، وسلطتهم نافذه، فسيورقويتي بيكي - زوجة تولوي بن جنكيز خان - لم يخرج أحد من أبنائها عن طاعتها، واستفاد المسلمون من علاقتهم الطيبة معها والتي

(1) طبقات ناصري، الجوزاني (226/2).

(2) تاريخ، البنائكي (1/ 503).

(3) رحلات، ماركو بولو (1/ 139).

(4) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (3/ 209).

(5) تاريخ، البنائكي (1/ 468).

(6) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (3/ 175).

(7) المصدر نفسه (3/ 176).

(8) المصدر نفسه (3/ 215).

(9) المصدر نفسه (3/ 199).

انعكست في سياسات منكوبن تولوي تجاههم⁽¹⁾، وكانت تعيينات هولالكو لولاله تمر وفق رغبات زوجه قطر خالون الاله كانله نصرانية الالهة⁽²⁾، وكان لزوجة أبو سعيل بهادر، بغداد بنله جوبان نفوذ كبير ولةل في السلطان، فيقول ابن فضل الله "فإننا ما رأينا في زماننا، ولا سمعنا عن قارب زماننا أن امرأة لالهت لالهت⁽³⁾".

كما أن العطايا والهبات تقسم بين الأمراء والخالين دون اسلاء⁽⁴⁾، وكانله مخصصات الخالين لاله مخصصات الوزراء⁽⁵⁾، وكانله سرقوئي بيكي المفوضة بلةقسيم العطايا والهبات في مجلس القوريلالي⁽⁶⁾.

الاله: قيام النساء بالاله وقياة الجيوش:

كانله زوجة الخان أو رئيس القيلة لاله في عرف المغول النالئ الفعلي له، وعند موله تولوي بن جنكيز خان، أمر أوكتاي أرملله سيورقوئي بيكي أن لاله دولله وجيوشه، ولم يكن الأمر مسلهجناً أو غير مألوف، وامالزل بقلرالله القياة العاللة، وكان لها دور كبير في لفظ اسلقرار العاللة المالكة، عبر مشورالله ونصائله، وكانله ملل اجماع جميع الأطراف في العاللة، ولفله البنلالكي بقوله "كانله أعل النساء"⁽⁷⁾.

وعند وفاة أوكتاي بن جنكيز خان، كانله زوجة أوكتاي الكبرى هي موكا خالون، الاله ورلها عن والده جنكيز خان، لكن زوجه الأخرى لوركينا خالون واللة كيوك، كانله أشل منها لاهاً، فقامله بمراسلة جميع أخوة أوكتاي، وشرلله لهم الأوضاع وطالبل بعلق مجلس القوريلالي، فلهلله على الموافقة بأن لاله الاله هي اللل لالل انعلق المجلس، فاسلمالله إليها القبالل والوزراء، وكان لها علاواله قديمة في بلاط أوكتاي، فاسللالله أن لاله اللل⁽⁸⁾.

(1) لالرخ، البنالكي (1/ 434)؛ ابن فضل الله، مسالل الأبصار (3/ 111).

(2) مسالل الأبصار، ابن فضل الله (3/ 205).

(3) المصدر نفسه (3/ 175).

(4) لالرخ، البنالكي (1/ 468).

(5) مسالل الأبصار، ابن فضل الله (3/ 209).

(6) فالل العالم، الجويني (1/ 259).

(7) لالرخ، البنالكي (1/ 434).

(8) فالل العالم، الجويني (1/ 248-249).

وكانت تستدعي السلاطين شرقاً وغرباً، وحين وصل ابنها كيوك إلى العاصمة، لم يستلم منها الملك إلا بعد وفاتها، ودامت فترة حكمها أربعة سنوات⁽¹⁾.

كما أن سيوروقويتي بيكي، كانت أول من استشير من العائلة بعد وفاة كيوك بن أوكتاي، حيث اتفقت مع باتو بن جوجي على أن يوكل الحكم إلى أرملته أغول غاميش⁽²⁾، لكن أبناء الأخيرة كانوا على خلاف دائم معها بسبب اختلائها بالشامان، وتماديها بالتفرد بالقرارات⁽³⁾، واستمرت شكوى الأبناء من أهمهم إلى باتو وسيوروقويتي بيكي حتى تم التوافق على عقد القوريلتاي، لاختيار بديل عنها⁽⁴⁾.

عند وفات باتو بن جوجي، أمر منكوب بن جنكيز خان بتولي براقجين -أكبر أرامل باتو- الحكم بدلاً عنه⁽⁵⁾، وبعد موت جغتاي أشرفت زوجته يسلون على الحكم⁽⁶⁾، وقام هولوكو بتعيين ترکان خاتون على ولاية کرمان⁽⁷⁾.

ومن غرائب الأمور، تولي النساء قيادة الجيوش المغولية، فيقول البناكتي "وسلم آباقا خان جيشه لابنة أخيه توقيتي خاتون، وتوفيت سنة ستمائة وإحدى وتسعين، وسلموا هذا الجيش إلى كوكاجي خاتون، وتوفيت سنة خمس وتسعين وستمائة، وبعد ذلك أعطى غازان هذا الجيش إلى كرامون خاتون بنت قتلغ تمور بن آتاباي نويان، وتوفى -غازان- سنة ثلاث وسبعمائة، وكانت تملك هذا الجيش في هذا الوقت"⁽⁸⁾.

كما أن النفوذ النسائي لم يقتصر على نساء الطبقة الحاكمة، فقد كانت فاطمة خاتون حاجة توركيينا خاتون تحظى بسلطات واسعة، حيث تقربت من الأمير جنبقاي وتمكنت من السيطرة عليه، وحرمت أركان دولته من مباشرة أعمالهم حتى ملكت مقاليد الأمر والنهي، فتقرب لها العظماء وسائر الأطراف يطلبون ودها⁽⁹⁾.

(1) فاتح العالم، الجويني (1/249).

(2) المصدر نفسه (1/265).

(3) المصدر نفسه (1/266).

(4) فاتح العالم، الجويني (1/267).

(5) المصدر نفسه (1/269).

(6) المصدر نفسه (1/273).

(7) تاريخ، البناكتي (1/457).

(8) المصدر نفسه (1/444).

(9) فاتح العالم، الجويني (1/251).

الفصل الثالث: الأحوال الاقتصادية والعمرانية
والحضرية للمغول من خلال كتاب مسالك الأبصار
في ممالك الأمصار

المبحث الأول: مصادر المياه والثروة الزراعية والحيوانية

امتدت الإمبراطورية المغولية على مساحة واسعة من الكرة الأرضية، فشغلت أماكن العديد من الدول والممالك، وامتدت في الصين والخطا⁽¹⁾، وبلاد ماوراء النهر، وتركستان⁽²⁾، وخوارزم والقبجاق⁽³⁾، والعراق وخرسان⁽⁴⁾، وأرمينيا وكرجستان والروم، وهراة⁽⁵⁾.

ما يعني أنها كانت تشمل كل من الدولة المعاصرة التالية:

منغوليا والصين، وتركستان الشرقية، وأوزبكستان، وأذربيجان، وأجزاء كبيرة من روسيا، وبلغاريا، وبولندا، وتركيا، وجورجيا، وأفغانستان، وإيران، والعراق، وأجزاء من سوريا⁽⁶⁾.

تتعم المغول بوفرة في كافة الموارد الطبيعية التي تضمن رخاء دولتهم، واستمرار تقدمهم، فسيطر المغول على موارد مائية ضخمة تشمل أنهار الفرات⁽⁷⁾، وجيجون⁽⁸⁾، وبحيرة خوارزم⁽⁹⁾، ونهري ينج ووخش التي تقع بينهم ولاية الختل⁽¹⁰⁾، وأنهار جبال اليتم⁽¹¹⁾، وخرسان ممثلة بالأنهار الجارية والمراعي الممتدة، وهي مشهورة بمائها العذب⁽¹²⁾، وبلاد ما وراء النهر لا يحمل فيها المسافرين ماء ولا طعام⁽¹³⁾، وكانت الموارد المائية في الإمبراطورية المغولية كفيلا بتحويل

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (129/3).

(2) المصدر نفسه (145/3).

(3) المصدر نفسه (141/3).

(4) المصدر نفسه (197/3).

(5) المصدر نفسه (198/3).

(6) المصدر نفسه (129-198)؛ مؤنس، أطلس الاسلام (ص241-243).

(7) الفرات أحد الأنهار الخمسة الكبار، يجري في العراق وسوريه وتركيا. مسالك الأبصار، ابن فضل الله (415/3).

(8) نهر جيجون ببلاد ما وراء النهر ويعرف في الفارسية بأمودريا. المصدر نفسه (141/3).

(9) بحيرة خوارزم هي بحيرة آرال في الوقت الحاضر ويصب بها نهري سيحون وجيحون ومياها مالحة. المصدر نفسه.

(10) الختل مقاطعة واقعة بين نهري ينج ووخش وهي تسمى ختل وختلان، وأهم نواحيها وادي نهر كجي سرخاب. المصدر نفسه (143/3).

(11) المصدر نفسه (144/3).

(12) المصدر نفسه (146/3).

(13) المصدر نفسه (153/3).

بخاري إلى "بساط أخضر"⁽¹⁾، وكان سكانها مكتفين ذاتياً من كل المواد الغذائية والتموينية، ولم يكن لهم حاجة باستيراد أي مواد⁽²⁾، وأعداد الأنهار والبحيرات تفوق الحصر، وقد استفاض ابن فضل الله بذكر تفاصيل الأنهار ومنابعها وأطوالها ومجاريها ومصباتها بصورة تفصيلية، ميزت كتابه عن باقي المؤرخين الذين عاصروهم، وأدخل تفاصيل جغرافية كثيرة أعطت القارئ صورة جلية عن طبيعة الأرض، والسكان المحليين⁽³⁾.

على الرغم من الموارد المائية الهائلة، التي كانت كفيلة بتحويل الإمبراطورية المغولية من أكبر منتجي المنتجات الزراعية التي كان من الممكن أن ترفع قيمة الإيرادات المالية للدولة بشكل كبير، إلا أن المغول لم يعيروا الزراعة الاهتمام المطلوب، ويصف ابن فضل الله الزراعة في عهدهم بقوله "وإنما خضرتها مروج أطلقها باريها، وبها من النباتات البرية لا يذرها باذر، ولا زرعها زارع"⁽⁴⁾، ويعود انصراف المغول عن الاهتمام بالزراعة لطبيعتهم البدوية، وتقلهم وترحالهم، واهتمامهم بالرعي، وقد كانوا أهل صيد وتمرسوه بمهارة عالية، كما ذكرنا في الفصل السابق⁽⁵⁾، كما أن استمرار الحرب وما يتبعها من قتل وتدمير، كان له تأثير كبير على الزراعة ومختلف النواحي الاقتصادية الأخرى، وكان كثير من الشعوب المغولية تمتهن الزراعة وتعتمدها مورداً اقتصادياً أساسياً، إلا أن مواردها دمرت، وتأثر الاقتصاد الزراعي تأثير سلبي كبير بسبب الحروب، فيصف ابن فضل الله حالة سمر قند بعد الحرب بقوله "واعترت أنهارها من الشوائب، وبلبت به أغصانها ما تشيب له الذوائب أيام جنكيز خان وأبنائه"⁽⁶⁾، كما ويعلل قلة الزرع في العراق رغم توفر المياه والأراضي الزراعية بنفس السبب بقوله "قلة الزراع لما استهلكه القتل زمان هولأكو"⁽⁷⁾.

رغم أن اهتمام المغول بالموارد الزراعية كان ضعيفاً، إلا أن الله حباهم بزراعة بعلية في أصناف كثيرة يطول حصرها؛ من فواكه وخضار وغابات ولوزيات وأخشاب، ومراعي للماشية⁽⁸⁾.

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (158/3).

(2) المصدر نفسه (162/3).

(3) المصدر نفسه (141/3 حتى 180).

(4) المصدر نفسه (170/3).

(5) المصدر نفسه (181/3).

(6) المصدر نفسه (168/3).

(7) المصدر نفسه (205/3).

(8) المصدر نفسه (170/3).

واستطاع جيش هولاكو الصمود وهو في الطريق إلى بلخ بفضل أشجار الفواكه المنتشرة على طول الطريق⁽¹⁾، ينقل ابن فضل الله عن وفرة الفواكه "رأيت في فواكههم ما يزيد على سائر الآفاق، حتى ترعاها دوابهم"⁽²⁾.

وتعد تربية دودة القز على ورق شجر التوت من أهم الزراعات في العصر المغولي، وكانت التجارة العالمية تعتمد بشكل أساسي على تسويق الحرير والذهب، وانتشرت هذه الزراعة والتربية انتشاراً كبيراً في كامل أرجاء الإمبراطورية، لما كان لها من مردود اقتصادي عالي⁽³⁾.

كما انتشرت زراعة القطن في الصين والخطا على مساحات شاسعة، واستخدم القطن في صناعة الأقمشة التي كانت تُصدر إلى كل العالم عبر الموانئ البرية والبحرية⁽⁴⁾.

وكانت المنتجات الزراعية المغولية تُسوّق في الأسواق المحلية والعالمية، فكان البطيخ يقدر⁽⁵⁾ ويتم بيعه طول العام⁽⁶⁾، وتم انتاج أفضل أنواع تمرور العالم في البصرة⁽⁷⁾، ويستخرج السكر من قصب السكر ويتم تقطيره ثم بيعه وتصديره⁽⁸⁾.

وقد بدأ أوكتاي بعد تسلمه العرش، الاهتمام بالزراعة لإدراكه ما لها من أهمية كبيرة في الاقتصاد والتطور المالي، وبدأت السلطات بحث الناس على العمل في القطاعات الزراعية، وقد أقر أوكتاي مكافآت مالية للمزارعين، يقول الجويني عن عهد أوكتاي "لكن في عهده بدأ الناس بالزراعة، وكان هناك شخص يزرع الفجل، وكان ذلك أمراً نادراً، وكلما نبت الفجل عنده أحضره للملك، وكان الملك يأمر بأن يعد الفجل وأوراقه، فإن بلغ تعداد ذلك المائة، يأمر بأن يعطى مئة بالش"⁽⁹⁾، يظهر من نص الجويني أن المجتمع المغولي كان بعيداً كل البعد عن الزراعة، فمكافئة زراعة كمية قليلة من نبات الفجل، تكافئ بمبلغ أعلى من قيمة المنتج بكثير، ما يعطي صورة واضحة عن إهمال مورد اقتصادي كبير تنبه له أوكتاي وعمل على استدراك أمره.

(1) رحلات، ماركو بولو (93/1).

(2) مسالك الأبصار (150/3).

(3) المصدر نفسه (182/3).

(4) رحلات، ماركو بولو (57/1)؛ (87/2).

(5) قَدَّ الشَّيْءَ: بالغ في شَقِّه. قَدَّ اللحم: قَطَّعه طَوَّلاً ومَلَّحه وجَفَّفَه في الهواء والشَّمس "قَدَّ لحم الأضحية - كان القدماء يَقْدِدُون اللحمَ ويحفظونه مدَّةً طويلة". معجم، مختار عمر (1779/3).

(6) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (218/3).

(7) رحلات، ماركو بولو (58/1).

(8) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (134/3).

(9) فاتح العالم (223/1).

ولم يكن للزراعة أهمية اقتصادية فقط، بل كان لها أهمية كبيرة في حفظ الأمن الغذائي وتحقيق الاكتفاء الذاتي من الامدادات الزراعية للشعوب وقت الحصار والحروب والمعارك، فقد تحرم الحرب أو المعارك الكبيرة السكان من إمدادات وحركة نقل الغذاء عبر طرق المواصلات، ما يساعد في سرعة انهيار السكان، أو تعزيز صمودهم في حال تحقق الاكتفاء الزراعي، ويشير ابن فضل الله إلى هذا المفهوم بقوله "ومن عمارة بخاري أن الرجل ربما أقام على الجريب⁽¹⁾ الواحد من الأرض، فيكون فيه معاشه وكفافه، هو وجماعة أهله"⁽²⁾.

وبناء على ما سبق، فقد ظهر للمغول بعد توسع دولتهم وإنشائهم مكاتب البريد في شتى البقاع والأراضي، عدم قدرتهم على نقل الامدادات والطعام لها بشكل دائم، فتم تخصيص عدد من المزارعين للسكن بجوار كل أماكن البريد النائية، ليقوموا بالزراعة وتوفير الموارد الغذائية المطلوبة⁽³⁾.

عمل أوكتاي أيضاً على تعويض المتضررين من تلف المزروعات بسبب سوء الأحوال الجوية أو غيرها من الأسباب، فنقل الجويني عنه قوله "لا يتألمن أحد من تلف مزروعاته ولا يعتريه أي احباط، وليحاول الزرع مرة ثانية هذا العام، فإن لم يجن المحصول الذي يريده فإنه سيعوض عن ذلك من خزانة الملك"⁽⁴⁾.

كما أن اهتمام المغول بالزراعة بدأ يزداد بعد عهد أوكتاي، واستمر تطوير القطاع الزراعي، ويظهر ذلك من خلال ما ذكره ماركو بولو في كتاب رحلاته عن الضرائب التي كانت تفرض على الواردات الزراعية في الموانئ، حيث أشار أن المغول وضعوا ضريبة عالية على العديد من المنتجات الزراعية القادمة من خارج حدود الإمبراطورية، بلغت أربعة وأربعون في المئة من قيمة المنتج في كثير من الحالات⁽⁵⁾.

وفي عهد قبولاي، كان موظفي الدولة يقومون بعمل احصاء سنوي للمحاصيل الزراعية، وتقييم الأوضاع ورفع تقرير للخان، وإن وجد متضررين بتلف المحاصيل، بسبب الأحوال الجوية، أو الآفات الزراعية، أو الجراد وغيرها، فإنه يتم اعفاءهم من الضريبة، ويتم تزويدهم بالحبوب من

(1) الجريب: مساحة من الأرض المزروعة تعادل عشرة آلاف متر مربع. مسالك الأبصار (162/3).

(2) المصدر نفسه.

(3) رحلات، ماركو بولو (69/1).

(4) فاتح العالم (235/1).

(5) (199/2).

مخازن الدولة، وكانت الدولة تقوم بشراء كميات كبيرة من الحبوب في زمن الوفرة وتخزينها، تحسباً لأي طارئ، ويتم تعويض المتضررين بشكل دائم⁽¹⁾.

كما زرعت الأشجار الكبيرة على جوانب الطرق الرئيسية، لتوفير الظل للمسافرين، ومساعدتهم في الاهتداء إلى الطريق، وقد كانت الأسباب الدينية دافعاً تحريضياً في زيادة اهتمام المغول بالزراعة، وأبلغ عرافي قبولاى خان مولاها، أنه سيكافئ بطول العمر في حال انتشار الزراعة⁽²⁾.

كما أن خانات المغول في الصين أصابهم الشغف بأنواع الأشجار والثمار النادرة، فما أن يسمع الخان عن وجود نوع جديد من الأشجار أو المزروعات، إلا قام بنقله إلى قصره مهما كانت التكلفة، ونقلت الأشجار الضخمة بتربتها وجذورها على ظهور الأفيال لمسافات طويلة⁽³⁾.

وهنا يظهر تطور الزراعة المغولية، من عهد أوكتاي إلى عهد قوبولاى؛ ففي عهد أوكتاي كان يكافئ من يزرع عدد محدود من ثمار الفجل بمبالغ مجزية، ويتم تكريمه في قصر الملك، إلا أن التطور الزراعي بدأ يظهر بشكل واضح في عهد قوبولاى، من حيث استطاعة المغول نقل الأشجار بجذورها وتربتها لمسافات بعيدة دون موت الأشجار أو تلفها⁽⁴⁾.

الثروة الحيوانية:

في الوقت الذي لم يعر فيه المغول اهتماماً كبيراً بالزراعة، كانت عنايتهم بالثروة الحيوانية بالغة، ويرجع هذا الاهتمام لطبيعة المجتمع المغولي البدوي الرحال، الذي انشغل بتربية المواشي والبحث عن مراعي، واعتمد في غذائه على اللحوم والألبان بكافة أنواعها، وكان لبن الفرس المفضل لديهم عن كل الأطعمة⁽⁵⁾، وكانوا يأكلون ما توفر لهم من صيد، من كلاب وفئران

(1) رحلات، ماركو بولو (75/2).

(2) المصدر نفسه (77/2).

(3) المصدر نفسه (30/2).

(4) المصدر نفسه.

(5) فاتح العالم، الجويني (62/1)؛ ابن فضل الله مسالك الأبصار (110/3).

وأرانب وطيور⁽¹⁾، وكانوا يربون الكلاب والصقور ويدربونها على الصيد والحماية⁽²⁾، ومراسم الصيد لديهم كانت ما بين موسم احتفالي وتمارين عسكري كما ذكرنا سابقاً⁽³⁾.

وكانت قطعان الحيوانات التابعة للمغول كثيفة، وثروتهم منها عالية، نظراً لتوفر المراعي الخصبة بكثرة، يقول ابن فضل الله "يوجد عند آحاد العامة من عشرين دابة إلى خمسمائة دابة، لا كلفة عليه في اقتنائها لكثرة الماء والمرعى"⁽⁴⁾.

وانتشرت قطعان الأغنام البرية التي يتراوح عدد القطيع منها ما بين خمسمائة إلى ستمائة رأس، ورغم اقتناص السكان أعداد منها بشكل دائم إلا أن أعدادها لا تقل لوفرتها وغزارة تكاثرها⁽⁵⁾.

ومن وفرة المواشي كانت تستخدم قرونها كإشارات استدلال على الطرق، بحيث توضع القرون بكميات كبيرة فوق بعضها البعض، لتؤدي عابر السبيل إلى طريقه⁽⁶⁾.

وارتبط المغول ارتباطاً وثيقاً بالخيول، وكانت الخيول من أهم أنواع الحيوانات التي كانت تربي لديهم، وكان لكل رجل منهم ما يعادل ثمانية عشر حصاناً⁽⁷⁾.

وارتبطت الخيل بالمعارك والحروب، والخيول المغولي شريك أساسي في صناعة النصر وحسم المعارك، وهو متميز بأنه يأكل الكأ ولا يحتاج إلى علف، وهي صفة ممتازة للحرب، فتغني الجيش عن حمولات ثقيلة من المؤن وبالتالي خفة حركة الجيوش وسرعتها⁽⁸⁾.

كما أن الجندي المغولي لديه القدرة على العيش لمدة شهر كامل على لبن الفرس دون غيره، وفي الحالات شديدة الصعوبة، يقتات على شرب دم الخيل فقط، ويقضي المغولي يومين كاملين على صهوة جواده دون النزول عنها، وهو دليل قوة الخيل والمغول معاً، والارتباط القوي بين الطرفين⁽⁹⁾.

(1) رحلات، ماركو بولو (139/1).

(2) المصدر نفسه.

(3) تاريخ، البناتكي (1/ 426)؛ ابن فضل الله، مسالك الأبصار (3/ 110-111).

(4) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (3/ 152).

(5) رحلات، ماركو بولو (99/1).

(6) المصدر نفسه (105/1).

(7) المصدر نفسه (144/1).

(8) المصدر نفسه.

(9) المصدر نفسه (142/1).

كما واستخدموا الخيل في المراسلات السريعة، ويكون في مركز البريد عدد أربعمئة من الجياد الأصلية لتكون على جهوزية دائمة لأي حركة طارئة⁽¹⁾.

وكان للجيش المغولية حركة فصلية دائمة، فيتم تحريك الجيش في الصيف إلى مواطن الكلاً، وتتغير مواضع الجيش في الشتاء حرصاً على القطعان وحتى لا تقل قوة الخيول من شدة الثلوج والبرد⁽²⁾.

واهتم المغول بتربية السلالات النادرة، مثل الخيول التركية القوية⁽³⁾، ووجدت سلالة يطلق عليها خيل الاسكندر، وبلغت شدتها وقوتها بأنها لا تحذى⁽⁴⁾، ويربي الخان أكثر من عشرة آلاف من الخيل والأفراس كلها بيضاء ناصعة لا يجرؤ أحد على اعتراض طريقها أو شرب لبنها⁽⁵⁾. وأهدى جوجي والده جنكيز خان عشرون ألفاً من الخيول الأصلية، وقطعان من الحمر الوحشية، ساقها إليه من صحراء القبجاق، حتى أن حوافرها اهترأت من طول المسافة، وتم الباسها نعال لتستطيع مواصلة المسير⁽⁶⁾.

وكانت تجارة الخيول رائجة، ويتم تصديرها إلى الهند وغيرها من الدول بمبالغ عالية⁽⁷⁾. واستخدمت الكلاب المدربة في الصيد والحروب على حد سواء، فيطلق الكلب على الفريسة ولا يعود إلا وهو يحملها بين أسنانه⁽⁸⁾، ويكلف مدربين متخصصين في تعليمها كافة المهارات وكان في قصر قوبلاي، خمسة آلاف كلب مدرب وهي مقسمة ما بين كلاب الصيد السريع والبطيء وكلات الحراسة⁽⁹⁾.

وكانت رعاية الإبل والماعز تتم في منتزهات الملك حتى تكون طعام لصقور والفهود، ويتجول الخان وهو يحمل معه فهد أو نمر صغير على حصانه، وما أن يشاهد أحد الحيوانات

(1) رحلات، ماركو بولو (69/2).

(2) المصدر نفسه (51/1).

(3) المصدر نفسه (50/1).

(4) المصدر نفسه (98/1).

(5) المصدر نفسه (162/1).

(6) فاتح العالم، الجويني (162/1).

(7) رحلات، ماركو بولو (69/1).

(8) المصدر نفسه (52/2).

(9) المصدر نفسه.

حتى يطلقه، ليقوم بافتراس صيده، وهي هواية ورياضة متبعة لدى المغول، كما وأنه كان الخان يتفقد حظائر الحيوانات بشكل أسبوعي⁽¹⁾.

وكان في قصر قبلاي عشرة آلاف من مدربي الصقور والنسور، وعدد لا يحصر منها، ويُثبَّت في سيقان الطيور حلقات فضية يكتب عليها بيانات الصقر لحفظه من الضياع⁽²⁾.

ويمنع الصيد واقتناء الصقور للعامة إلا بتصريح مكتوب⁽³⁾، ويمنع الصيد في الفترة الواقعة ما بين مارس آذار وأكتوبر تشرين الأول من كل عام وهي فترة تكاثر الحيوانات⁽⁴⁾، وفي موسم الصيد يطلق عدد من الحيوانات والطيور في الطبيعة، لحمايتها من الانقراض، والسماح لها بالتكاثر⁽⁵⁾.

وقام المغول بإنشاء محميات طبيعية يمنع الاقتراب منها أو الصيد فيها، ويعاقب من يقوم بالصيد فيها لحماية الحيوانات والطيور، وأمر قوبلاي بزراعة الحبوب لتقريب الطيور، فيتم الزراعة ومنع الحصاد حتى لا تفقد الطيور غذائها، وكان المغول في الصين يقومون بإنشاء بيوت للطيور للتكاثر فيها، وحمايتها من برد الشتاء⁽⁶⁾.

وأنشأ المغول برك للاستزراع السمكي، عبر حفر ما يشبه النهر الصغير، يتم فيه تربية أنواع شتى من الأسماك، وتزود موائد الخان منها باستمرار⁽⁷⁾.

وحمى المغول رعاياهم من الخسائر التي تتسبب بها حالات نفوق الحيوانات لأسباب جوية أو صحية، فيتم إعفاء المربين من الضرائب في مثل هذه الحالات، ويحصل المزارع الذي يصاب قطيعه بالبرق، على إعفاء ضريبي لمدة ثلاثة سنوات⁽⁸⁾.

(1) رحلات، ماركو بولو (161/1).

(2) المصدر نفسه (57/2).

(3) المصدر نفسه (58/2).

(4) المصدر نفسه (59/2).

(5) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (3/ 111).

(6) رحلات، ماركو بولو (159/1).

(7) المصدر نفسه (30/2).

(8) المصدر نفسه (76/2).

المبحث الثاني: الصناعة

لم يستطع المستضعفين صد هجمات المغول عن بلادهم، ورغم أن المغول غلبوا الشعوب بالسيف والسنان، إلا أنهم هُزموا في أول محاولة لإقامة دولة مدنية، نظراً لطبيعتهم البدوية وحياتهم البسيطة الخالية من المدنية وتطورها، وكما أن المغول أركعوا عشرات الشعوب أمام جحافلهم وخيولهم، استطاع المستضعفين اخضاع المغول عبر القوة الناعمة، فلم يعد المغول يستطيعون تطبيق قوانين الياسا التي أمرت بإعدام كل من لا يستسلم قبل المعركة، وأُجبر القادة العسكريين على كظم غيظهم واستثناء أصحاب الحرف والصناعات من الإعدام، نظراً للحاجة الملحة لهم وبسبب جهل المغول بالصناعة، انتقلت قوافل الأسرى تبعاً إلى العواصم والمدن الكبرى⁽¹⁾، ليشاركوا في بناء وتأسيس الحضارة المغولية الصاعدة، التي حملت ملامح الشعوب المغلوبة بوضوح، وظهرت بصمات المستضعفين بجلاء تام في الآثار والعمارة المغولية⁽²⁾.

وانتقل الصناع من مجرد عبيد يعملون وفق أهواء مواليتهم، إلى مستشارين ووزراء، وفي مواقف كثيرة أُجبر الخان الأعظم على خرق القوانين لإرضاء هؤلاء المستشارين، وكان الخان يصطحب الصناع والأطباء والفقهاء معه في أسفاره⁽³⁾.

وكان المهندسين المسلمين يشرفون على بناء المدن، وشارك النصارى أعمال النجارة والحدادة⁽⁴⁾، واستدعى هولاء خبراء صناعة المناجق من الموصل حين استعصت عليه إحدى القلاع⁽⁵⁾، واستخدم قوبلاي خان آل ماركو بولو في صناعة منجنيق ضخمة⁽⁶⁾.

نقل ابن فضل الله وصف لأهل الصين يظهر راحة عقولهم واتقانهم الصنائع البديعة بقوله "أن لأهل هذه البلاد عقولا راجحة وأعمالا دقيقة وهم يقولون الفرنج عور وباقي الناس عمي"⁽⁷⁾، يقصد بهذا المثل أن الصناعة الصينية تفوق باقي الصناعات العالمية، فهي تضاهي ضعف قوة الأوروبيين الصناعية، وأنه لا يمكن مقارنة الصينيين وباقي الشعوب الأخرى بها.

(1) فاتح العالم، الجويني (118/1).

(2) طبقات ناصري، الجوزياني (166/2).

(3) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (213/3).

(4) رحلات، ماركو بولو (159/2).

(5) طبقات ناصري، الجوزياني (217/2).

(6) رحلات، ماركو بولو (159/2).

(7) مسالك الأبصار (136/3).

وسخر المغول امكانيات الشعوب المغلوبة لخدمة دولتهم، وكانت صناعات أهل الصين شديدة الإتقان⁽¹⁾، وعرف عن أهل الصين مقدرتهم على تقليد أي منتج عالمي بشكل دقيق جداً، فنقل ابن فضل الله أن أحد الصناع في الصين قام بإنتاج ملابس من الورق، وباعها على أنها من القماش المستورد من الخطأ، ولما كشف أمره الناس حارت عقولهم من شدة إبداعه في الصناعة⁽²⁾، وقام صانع آخر بصنع سرج من أحشاء الأبقار وعرضه على الخان، فظن أنه من الخشب كباقي السروج في زمانه⁽³⁾.

كما أنهم صنعوا حشوات الأسنان والأسنان الصناعية وسبقوا العالم إليها، وينقل ابن فضل الله عن أحد التجار تعجبه الشديد من هذا الأمر حين قام حطاب صيني بتركيب أحد الأسنان الصناعية له ويصف الحدث بقوله "ثم أخرج من خريطة له، كانت معه أضراراً كانت كوامل وأنصافاً وأثلاثاً وأرباعاً معدة عنده لوضعها في مواضع ما يقلع، ثم لم يزل يقيس مواضع ما قلع لي حتى وضع موضعها"⁽⁴⁾.

وكان في عاصمة الصين الجنوبية حين احتلها قبلاي خان اثني عشرة حرفة، لكل حرفة ألف مصنع، يعمل بكل مصنع ما بين عشرة إلى أربعين عامل، وهي مدينة صناعية بامتياز، حاز سكانها على مكانة عالية بين المدن الصينية، لتحضرهم ورقهم⁽⁵⁾.

كانت صناعة الملابس والمنسوجات بكافة أشكالها من أكبر الصناعات في الإمبراطورية المغولية، واعتمدت التجارة العالمية على الحرير والذهب بشكل خاص⁽⁶⁾، وانتشرت صناعة المنسوجات بأشكالها المتنوعة والمتعددة، وانتشرت مصانع القطن والملابس الفاخرة في كل الأنحاء وتركزت في الصين، وازدهرت فيها الأعمال والصناعات اليدوية من تطريز ونقش على القماش بأشكال الطيور والحيوانات⁽⁷⁾، وفي ما وراء النهر انتشرت صناعة الحرير والصوف وقماش البز-نوع من الثياب⁽⁸⁾، وفي إيران صنعت أقمشة النخ والمخمل⁽⁹⁾، والكمخا والعتابي،

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (130/3).

(2) المصدر نفسه (131/3).

(3) المصدر نفسه (136/3).

(4) المصدر نفسه (135/3).

(5) رحلات، ماركو بولو (174/2).

(6) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (182/3).

(7) المصدر نفسه (130/3).

(8) المصدر نفسه (150/3).

(9) النخ نوع من القماش القطني أو الحريري والمخمل نوع من القماش الناعم. المصدر نفسه (211/3).

والنصافي⁽¹⁾، والصوف الأبيض المارديني⁽²⁾، وانتشرت في بلاد تركمانيا صناعة الحرير المصبوغ بالأرجوان⁽³⁾، وبها تصنع البسط الفاخرة⁽⁴⁾.

وفي أرمينيا الكبرى صناعة نسيج قطني يسمى البومبازين⁽⁵⁾، وصناعة الحرير المغزول بخيوط الذهب⁽⁶⁾، وفي الموصل صناعة الأنسجة الحريرية والذهبية المسماة بالمرسلين، والحرير المذهب المزين بأشكال الطيور والحيوانات⁽⁷⁾.

كما كانت بغداد محطة يهبط فيها تجار المجوهرات القادمين من الهند، فيقوموا بتصنيعها لدى الصناع في بغداد، قبل نقلها إلى أوروبا⁽⁸⁾، وظهرت صناعة الزنانير الصوفية اليدوية في الأديرة النصرانية التي كان يعتقد أنها تفيد في علاج الروماتزم⁽⁹⁾.

وصنعت الأحذية من جلود الحيوانات⁽¹⁰⁾، وصنع قماش يقي من النار يستخدم لدى الحدادين⁽¹¹⁾، وكانت الأقمشة المصنوعة من وبر الجمال تباع بكميات كبيرة في الأسواق العالمية⁽¹²⁾.

وانتشر لدى المغول العديد من الصناعات الغذائية، فانتشرت مصانع السكر النباتي في أرجاء الدولة⁽¹³⁾، وكانت صناعة السكر لدى المغول في الصين رديئة المنتج، إلا أنها أصبحت عالية الجودة بعد نقل طريقة جديدة لتكرير السكر، عبر أحد عمال البلاط المغولي الذي أحضر

(1) أنواع من الأقمشة اشتهرت بجودتها في عصر ابن فضل الله. مسالك الأبصار، ابن فضل الله (211/3).

(2) المصدر نفسه.

(3) رحلات، ماركو بولو (50/1).

(4) المصدر نفسه؛ مسالك الأبصار، ابن فضل الله (211/3).

(5) رحلات، ماركو بولو (51/1).

(6) المصدر نفسه (54/1).

(7) المصدر نفسه (56/1).

(8) المصدر نفسه (58/1).

(9) المصدر نفسه (66/1).

(10) المصدر نفسه (95/1).

(11) المصدر نفسه (124/1).

(12) المصدر نفسه (153/1).

(13) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (134/3).

من بابل⁽¹⁾، وتُجفف الفواكه وتُسوّق في كل الأرجاء⁽²⁾، وتصنع الخمر في المناطق التي تكثر فيها كروم العنب⁽³⁾، كما وصنعت الخمر من الأرز والبحارات⁽⁴⁾.

صناعة وسائل المواصلات:

تعددت طرق النقل والمواصلات في الإمبراطورية المغولية، فاستخدمت الخيول والحمير والجمال لحركة النقل البري⁽⁵⁾، وصنعت عربات متعددة الأشكال والأحجام، وكانت التصاميم تتم حسب الهدف من العربة، فصممت عربات ذات الأربع عجلات، وعربات ذات العجلين، يصفها ماركو بولو بأنها ممتازة "وفعالة جداً" أثناء السفر، وهي مغطاة بالجلود لحماية الركاب من المطر⁽⁶⁾.

وصنعت في الصين عربات خاصة بالتنزه، تكون مقاعدها مكسوة بالقطن والحرير، ومزينة بالذهب والأشكال البديعة، وهي عربات تستأجر ليتنزه بها العامة في المناطق المفتوحة وتجوب الشوارع المرصوفة⁽⁷⁾.

كانت تكاليف السفر ونقل البضائع عبر النقل البحري أقل من تكاليف النقل البري⁽⁸⁾، نظراً لكثرة المنافذ البحرية في الدولة من أنهار وبحار وبحيرات، كما أنها كانت تختصر الوقت وتقرب المسافات، بالإضافة إلى خطورة الطرق البرية أثناء الحروب⁽⁹⁾، واستخدمت السفن على نطاق واسع في الإمبراطورية المغولية، وشاهد ماركو بولو خمسة عشر ألف سفينة في أحد أنهار الصين حمولة الواحدة أربعة آلاف قنطار، وعدد آخر من السفن التي حمولتها اثني عشر ألف قنطار⁽¹⁰⁾.

(1) رحلات، ماركو بولو (196/2).

(2) المصدر نفسه (94/1).

(3) المصدر نفسه (110/1).

(4) المصدر نفسه (78/2).

(5) رحلات، ماركو بولو (69/1).

(6) المصدر نفسه (138/1).

(7) المصدر نفسه (177/2).

(8) المصدر نفسه (44/1).

(9) المصدر نفسه (17/1).

(10) المصدر نفسه (161/2).

يتضح من شهادة ماركو بولو انتشار صناعة السفن على نطاق واسع في الإمبراطورية المغولية، لكنه في نفس الوقت يقول أن صناعة السفن في هرمز⁽¹⁾ رديئة وتعرض حياة البحارة للخطر، لأنها مصنوعة من أخشاب صلبة، ولا يمكن للمسامير اختراقها، وإنما تربط ألواح الخشب ببعضها البعض بليف جوز الهند، وللسفينة سارية واحدة، وسطح واحد ولا توجد لديهم مراسي حديدية ما يسبب تحطمها أثناء العواصف، وفي إحدى الرحلات التي شارك فيها ماركو بولو توفي ستمائة من البحارة خلال مدة ثلاثة شهور⁽²⁾.

وصنعت في العديد من المدن الصينية الكبيرة، سفن خاصة بالتنزه يطلق عليها الذهبيات، تتسع لخمسة عشر شخصاً، وتزين بالذهب وأنواع القماش، وتستأجر للتجول بين الأنهار والتنقل بين الجزر⁽³⁾.

وكانت الصناعات العسكرية تلقى رواجاً كبيراً في الإمبراطورية، لتلبي احتياجات الجيوش على الجبهات، وفي العمليات الشرطية والصيد، وصنعت مستلزمات الجيوش ابتداءً من أعنت سروج الخيل، إلى الأقواس والسيوف والسهام والجعب، وارتبطت هذه الصناعة باستخراج الحديد من المناجم⁽⁴⁾، والمناجق الضخمة⁽⁵⁾، التي عمل على تصميمها مهندسين وحدادين ونجارين⁽⁶⁾، وصنعت القلاع الخشبية المتحركة على ظهور الأفيال، والتي يتحصن بها عدد يتراوح ما بين اثني عشر وستة عشر من الرماة، وتغطي بالجلود لحمايتها من الحريق⁽⁷⁾.

واستُخدم الزجاج في منازل الإيرانيين، ليسمح للضوء بالدخول، دون الحاجة إلى فتح الأبواب والنوافذ لشدة البرد⁽⁸⁾، وفي بخاري انتشرت صناعة الأواني الفخارية⁽⁹⁾.

وكانت صناعة الفناجين والأنية الخزفية متواجدة بكثرة في الصين، وتصدر منها كميات كبيرة بأسعار رخيصة، وتصنع من نوع مخصوص من التراب الذي يستخرج من المناجم، ثم

(1) هرمز: مدينة في إيران. مسالك الأبصار، ابن فضل الله (223/3).

(2) رحلات (46/1).

(3) المصدر نفسه (176/2).

(4) المصدر نفسه (73/1).

(5) طبقات ناصري، الجوزياني (217/2).

(6) رحلات، ماركو بولو (159/2).

(7) المصدر نفسه (15/2).

(8) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (201/3).

(9) المصدر نفسه (161/3).

يحرق في أفران كبيرة، وتعتبر مصانع الخزف مصانع عائلية تشارك فيها كل أفراد الأسرة في الصناعة⁽¹⁾.

وصنعت كؤوس الخمر من قرون الوعول الجبلية⁽²⁾، وظهرت صناعة الكؤوس من الصفيح، ولاقت اهتماماً من المغول وأعجبوا بها⁽³⁾، وصنعت الأواني الزجاجية⁽⁴⁾.

وصنعت العملة الورقية في عهد قبلاي، عبر مصانع تعمل تحت إشراف الأجهزة الحكومية، فيستخرج لحاء شجرة التوت، ثم يدق بشكل متواصل حتى يصبح كالعجينة، ثم يتم تحويله إلى أوراق مستطيلة الشكل، ويوقع على كل ورقة عدد من الموظفين، ثم يختمونها، وتصبغ بصبغ خاص، وتعد محاولة تزوير هذه الأوراق جريمة يعدم فاعلها⁽⁵⁾.

وصنعت الحبال من الأعواد والقنب، وكانت متانتها عالية، واستخدمت خصيصاً لجر السفن على البر ضد التيار أو معه، واستخدمت للمراسي والسواري⁽⁶⁾.

لم تقتصر الجهود الصناعية على جهود مؤسسات المجتمع المدني المغولي، بل وشارك خانات المغول في تشجيع الصناعة، ورفع مكانتها، فأرباب الصناعات كانوا يتنقلون بشكل دائم إلى جوار الخان، وكانوا بمثابة مستشارين مقربين، وأجريت منافسات بين الصناع والحرفيين في الصين والخطا، وكان يتم تعليق المنتج المميز على باب الملك لمدة عام كامل، فإن لم يعاب من أحد كوفئ صاحبه مكافئة عالية⁽⁷⁾، وحرص المغول على تقريب أرباب الحرف منهم واستخدامهم في قصورهم، وأحضر صانع آنية من حلب إلى قصر أوكتاي ليحصل على مكافئة، فعرض عليه البقاء في خدمته وعدم المغادرة⁽⁸⁾.

وكانت المنافسة بين الصناع شديدة، وحرص كل منهم على رفع قدره لدى المغول بمهارته وتميزه عن غيره من الصناع، وإن صنع أحدهم ما يميزه، ولم يعبه أحد من أقرانه أن يرتفع قدره ومكانته لدى السلطات المغولية، وإن حط أحد الصناع من قيمة صناعة زميله، وتم التحقق

(1) رحلات، ماركو بولو (199/2-200).

(2) فاتح العالم، الجويني (231/1).

(3) المصدر نفسه (231/1).

(4) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (124/3).

(5) رحلات، ماركو بولو (65/2).

(6) المصدر نفسه (161/2).

(7) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (130/3).

(8) فاتح العالم، الجويني (231/1).

من صحة ادعاءاته نزلت مكانته بقدر تقييم زميله له، يقول ابن فضل الله عن إحدى جلسات تقييم منتجات التطريز على القماش حضرها عدد من الصناع وانتقد أحدهم صنعة زميله، "فاستحسن قوله، ووضع قدر الصانع"⁽¹⁾.

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (131/3).

المبحث الثالث: التجارة

كان الاقتصاد المغولي قبل توحيد القبائل المغولية تحت قيادة جنكيز خان مقتصرًا على الصيد وتربية المواشي، واعتمد المغول في تطوير ثرواتهم على نهب أعدائهم في الحروب أو الغارات⁽¹⁾، إلا أنه ومع توحيد القبائل وإعلان جنكيز خان دولته، تحول اهتمامه باتجاه التجارة⁽²⁾، بوحي من مستشاريه المسلمين، الذين أوكل اليهم جنكيز خان ملفي التجارة والاقتصاد⁽³⁾، وتوجه جنكيز خان لتوسيع تجارته العالمية وبدأ بأرسال القوافل باتجاه الدول المجاورة، حملة بكميات الذهب والفضة والحريز، والملابس المصنعة من جلود الحيوانات البرية، وكانت هذه هي السلع الرئيسية في دولة المغول⁽⁴⁾، وفضل جنكيز خان القيام بتأسيس علاقات تجارية مع الدولة الخوارزمية، لكن تعرّض قافلة التجار المسلمين التابعين له للغدر وقتلهم جميعاً من قبل قوات الدولة الخوارزمية⁽⁵⁾، غير مجريات الأحداث وأجبرته على مهاجمتها حفاظاً على سمعته⁽⁶⁾.

واستفاد المغول من الخبرات التجارية بشكل كبير، وعمدوا إلى استقطاب كل من كان له علم بفنون التجارة واستخدموهم للعمل في بلاطهم⁽⁷⁾، فتحوّلت دولتهم في وقت قصير إلى لاعب كبير في الاقتصاد العالمي، وتحكمت الدولة المغولية بالتجارة العالمية، حيث أهلتها أراضيها ومعابرها وموانئها الواقعة بمتوسط العالم على السيطرة شبه المطلقة على المنظومة التجارية، فكانت التجارة ما بين الهند وأوروبا لا بد لها أن تعبر الدولة المغولية، فتتحرك القوافل من الهند إلى الصين ثم إلى تبريز في إيران أو إلى بغداد في العراق، ثم تنقل إلى الشام ومنها إلى الأناضول أو إلى سواحل الشام على البحر المتوسط، قبل بلوغها غاياتها في أوروبا، وكانت تبريز مدينة تجارة عالمية كونها تتوسط الطريق بين الموصل وبغداد والهند⁽⁸⁾، وهرمز يتجمع بها كل فئات تجار منتجات القماش والعاج والذهب والمجوهرات وغيرها، ويتم التصدير إلى كل أنحاء العالم⁽⁹⁾.

(1) فاتح العالم، الجويني (62/1).

(2) المصدر نفسه (107/1).

(3) طبقات ناصري، الجوزياني (119/2)؛ العبر، الذهبي (165/3).

(4) طبقات ناصري، الجوزياني (123/2).

(5) فاتح العالم، الجويني (108/1).

(6) طبقات ناصري، الجوزياني (123/2).

(7) المصدر نفسه (119/2)؛ الذهبي، العبر (165/3).

(8) رحلات، ماركو بولو (64/1).

(9) المصدر نفسه (78/1).

وعمد المغول إلى تعزيز التجارة والمحافظة عليها وكسب ثقة التجار الدوليين، فيمنع التاجر المغولي من مواصلة العمل في التجارة إذا خسر ثلاثة مرات، وفي حال استمر في العمل يعدم⁽¹⁾، حفاظاً على السوق من الانهيار وبث الثقة بين المتعاملين، واحترموا التجار الوافدين ولم يطمعوا بأموالهم، فلا يتعرض تاجر لسوء في حياته أو مماته، وإن حدث وتوفي تاجر أثناء رحلته لا يمس ماله، ويعاد إلى دولته "ولو ترك ملاً الأرض ولا يدخلونه خزانة السلطان"⁽²⁾، وقد مات أحد التجار أثناء تجارته في الأراضي المغولية، ولم يكن له وارث وتجارته كثيرة تبلغ ثمانمائة ألف درهم، فلم يقبل عمال المغول أخذ أمواله، ونقلوا المال إلى بلاده توريثاً⁽³⁾.

واعتنوا بالأوضاع الأمنية، ترغيباً للتجار بالتعامل معهم، ففي غياب الأمن يختفي التجار، وفي حالات الاستقرار الأمني تزيد التجارة، وتزيد الأحمال والبضائع، وفي عهد ترماشيرين أمنت طرق التجارة مع مصر والشام، فأقبل التجار إليه وأصبحت بلاده ممر تجارة قوي، كما أنه منح التجار مزايا تحفيزية شجعتهم على التجارة في بلاده⁽⁴⁾.

وأثرت الحروب سلباً على التجارة بسبب انعدام الأمن والقوة الشرائية، وانقطاع الطرق التجارية، ما كان يسبب غلاء كبير في البضائع المستوردة، وركود ضخّم للبضائع المعدة للتصدير لعدم مقدرة التجار على تصدير بضاعتهم⁽⁵⁾.

فقام المغول بتعيين قوات متخصصة في حماية الطرق التجارية وتأمين التجار⁽⁶⁾، وأسسوا البريد "طلباً لحفظ الأموال، وسرعة إيصال الأخبار، ومستجدات الأحوال"⁽⁷⁾، كما تم تأمين الأموال وحفظ خطوط المواصلات عبر هذه المكاتب المنتشرة في كل أرجاء الامبراطورية، فتصل الأخبار العاجلة على وجه السرعة، وتستتفر القوات في أوقات مبكرة، ويستشعر القادة الخطر قبل وصوله بفترة كافية⁽⁸⁾.

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (106/3).

(2) المصدر نفسه (108/3).

(3) المصدر نفسه (153/3).

(4) المصدر نفسه (149/3).

(5) رحلات، ماركو بولو (34/1).

(6) فاتح العالم، الجويني (107/1).

(7) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (110/3).

(8) المصدر نفسه (110/3).

وعمل المغول على إزالة أي خطر يهدد التجارة، ففي فارس كانت العصابات تهاجم القوافل التجارية، فتم التصدي لهم بقوة، وقد تم إقرار نظام يلزم السكان في الأماكن الخطرة على حماية القوافل التجارية وتوفير أدلاء على الطرق مقابل دفع التجار مبالغ مالية لهم⁽¹⁾.

وكان للحشاشين تأثير سلبي كبير على أمن التجار والحركة التجارية، وقد عزم المغول على إنهاء وجود الحشاشين رغم الصعوبات الضخمة التي واجهتهم بسبب حصانة مناطق الحشاشين، وقد استمر تطهير منطقة الحشاشين مدة عشر سنوات⁽²⁾.

كان المغول يعطون التجار الوافدين من خارج الدولة أوراق أمان -تصريح دخول- تتيح لهم التحرك في أرجاء الدولة بحرية تامة، وقد استفاد المغول من هذه الأوراق استفادة كبيرة؛ فبالإضافة إلى نمو التجارة في أراضيهم وزيادة الحركة الاقتصادية بزيادة واردات الدولة من الضرائب والمكوث، استفاد المغول من هذه التسهيلات من ناحية كسب ولاء التجار وتحبيدهم أثناء الحروب، فعلى سبيل المثال، حين تقدم المغول لاحتلال لاهور، رفض التجار الدخول في القتال والدفاع عن بلادهم، بسبب مصالحهم الشخصية، وخشيتهم على تصاريح التجارة مع المغول، وأدى الأمر إلى شق الصف وتفرق الناس عن صد القوات المهاجمة لاحتلال البلاد، ولم يشارك أي تاجر في الحرب⁽³⁾، كما استطاع المغول في هذه المعركة تحييد قاضي المدينة ونزع رغبته في القتال، فيقول الجوزياني "وكان القاضي والعظماء يقصرون كثيراً في حراسة واجهة قلعة المدينة"⁽⁴⁾.

تشير هذه الأحداث إلى قدرة المغول العالية على استغلال التجارة والاقتصاد لتحقيق أهداف استراتيجية للإمبراطورية، وتسخير الاقتصاد لخدمة الأهداف العسكرية، فقد استخدم المغول الإغراءات التجارية للمجتمعات المناوئة لهم، لنزع رغبتها في القتال والمواجهة، وهزيمتها النفسية والمعنوية، وتقبلها الهزيمة قبل التوجه إلى أرض المعركة العسكرية، كما تنبه القارئ الجيد للتاريخ مدى خطورة السماح للأعداء بالتدخل في شؤون البلاد من باب التجارة وتحقيق مصالح الأفراد الاقتصادية على حساب قيمهم وائتمائهم لأوطانهم ودينهم.

(1) رحلات، ماركو بولو (70/1).

(2) المصدر نفسه (92/1).

(3) طبقات ناصري، الجوزياني (177/2).

(4) المصدر نفسه (178/2).

ذكر ماركو بولو أن تصاريح الدخول وأوراق الأمان، متعددة الأنواع، فالتصريح الذي حصل عليه ماركو بولو من الفئة الذهبية التي تتيح له التزود بالمؤن مجاناً من أي محطة بريد ينزل بها، كما تتيح له المبيت مجاناً في أي مكان في الإمبراطورية⁽¹⁾.

ومنعاً لإهدار القوة التجارية وللمحافظة على الأسعار، منع المغول الحفر في المناجم في بعض الولايات إلا بعد الحصول على ترخيص، ويمنع التصدير دون إذن مسبق حفاظاً على الأسعار⁽²⁾، ويمنع البحث عن اللؤلؤ في البحر أو حجار الفيروز من الجبال دون ترخيص، لنفس السبب⁽³⁾.

وكانت الأسعار في المدن الكبرى وفي المواسم والمناسبات ترتفع إلى أكثر من الضعف، لارتفاع تكاليف النقل والمواصلات⁽⁴⁾، ومتى سافر الملك إلى جهة، غلت الأسعار لكثرة أتباعه، وتتناسب أسعار المنتجات طردياً مع تكلفة النقل، فكلما غلت أسعار المواصلات والنقل زادت الأسعار تلقائياً⁽⁵⁾.

أسعار وأنواع العملات:

تفاوتت أسعار العملات من إقليم إلى إقليم ومن دولة إلى أخرى، فكان أهل خوارزم وإيران يتعاملون بالدينار الرائج، ويساوي ستة دراهم، والدينار الخرساني كان يساوي أربعة دراهم، ودرهم المغول أعلى من دراهم المماليك، لأن فضتهم خالصة غير مغشوشة، وإن قل وزنها عن دراهم المماليك إلا أنها أغلى ثمناً في سوق العملات لخلوها من الغش.

والدراهم لدى المغول كانت نوعان بأسعار مختلفة، فدرهم بأربعة فلوس ودرهم بثمانية⁽⁶⁾.

وكان في بغداد نوعين من العملة أحدهما الدينار العوان وهو يساوي اثنا عشر درهماً، والثاني الدينار المرسل بعشرة دراهم، وغالب تعامل أهل بغداد بالأخير⁽⁷⁾.

(1) رحلات، ماركو بولو (17/1).

(2) المصدر نفسه (97/1).

(3) المصدر نفسه (109/2).

(4) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (200/3).

(5) المصدر نفسه (202/3).

(6) المصدر نفسه (154/3).

(7) المصدر نفسه (204/3).

وكان صك العملة من مظاهر سيادة وقوة الدولة، فإسقاط اسم عن العملة وإضافة اسم جديد تعني إلغاء الاعتراف بالقديم، وإشهار دولة جديدة، وحين أعلن غازان إسلامه واعتلى العرش، ضرب العملة باسمه، وألغى تبعيته للإمبراطورية المغولية، وأعلن دولته⁽¹⁾.

وتعددت أنواع العملات في الإمبراطورية المغولية، وفي بعض الأقاليم والمقاطعات وتم تداول عملات خاصة بها بخلاف الذهب والفضة.

واستُخدمت العملة الورقية المصنوعة من لحاء شجر التوت في الصين، وتم تأسيس بنك مركزي تابع لقبلاي خان يصدر العملات الورقية ويحدد أسعار التداول⁽²⁾، وتستخدم داخل حدود الدولة، ويمكن تداولها والتعامل بها بسهولة، وطُبعت الأوراق متعددة الأسعار، فمنها ورقة فئة الدرهم الواحد، وورقة فئة درهمين، وخمسة دراهم، وفئة الأربعين والخمسين والمائة درهم، وفي حال اهترائها يتم استبدالها من البنك⁽³⁾.

تطابقت رواية ابن فضل الله وماركو بولو بخصوص العملة الورقية، إلا أن الأخير ذكر تفاصيل أكثر عن كيفية استخراجها من الشجر وتصنيعها وطبيعتها التداول⁽⁴⁾.

وتخزن الفضة والذهب في البنوك المركزية، وفي حال أراد أحد الصناع صناعة أواني أو حلي من الذهب والفضة، يقوم بشراء الكمية المطلوبة من البنك المركزي، بعد تقديمه طلب، ويتم تسجيل الكميات الخارجة من البنك في سجلات خاصة⁽⁵⁾.

وكان البنك المركزي يطبع ملايين الأوراق سنوياً، ويعد تزوير العملة جريمة كبرى يتم معاقبة فاعلها بالإعدام⁽⁶⁾.

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (119/3).

(2) المصدر نفسه (130/3).

(3) المصدر نفسه (135/3).

(4) رحلات، ماركو بولو (65/2)؛ ابن فضل الله، مسالك الأبصار (135/3).

(5) رحلات، ماركو بولو (66/2).

(6) المصدر نفسه (65/2).

وما لا شك فيه أن تقبل الناس والتجار للعملة الورقية، يبرهن مدى مهابة الدولة وقوتها وقدرتها على تنفيذ قراراتها، فلم يُسجل اعتراض تاجر على استبدال بضاعته بالورق النقدي، وكل من يعترض على الأوراق النقدية يعد (1)، وفي اتجاه آخر تظهر محاولة كيخاتو (2) الفاشلة في فرض عملته الورقية في مناطق حكمه، ضعف دولته وسوء تقديره للأمور، وعدم قدرته على تطبيق قراراته (3).

واستخدمت العديد من العملات في مملكة الصين والخطا، فاستخدم المرجان كعملة في ولاية التبت (4)، واستخدمت عملة مصنوعة من أقراص الملح في ولاية كاين دو، وكل ثمانين قرص منها تساوي دينار من الذهب (5).

وفي ولاية كريان استخدم المحار الخزفي بديلاً عن النقود، وتساوي الثمانين قطعة منه درهم فضي واحد وكل ثمانية دراهم تساوي دينار ذهبي واحد (6).

أهم الأصناف التجارية:

كثير من البلدان التي وقعت تحت حكم المغول لم تكن بحاجة إلى استيراد كثير للمنتجات الحيوانية والنباتية، وكانت حالة الاكتفاء الذاتي تغلب على معظم البلاد في هذين الصنفين (7)، وكانت تجارة الحرير والذهب هي التجارة الرئيسية في الاقتصاد العالمي في العصر المغولي.

وتُدر تجارة الجواهر المنقولة من شرق آسيا والهند أموال طائلة على التجار والدولة المغولية، فتستخرج المجوهرات من مناجم الهند والصين، وتنقل إلى العراق وإيران ثم الشام ومصر، ثم تتجه إلى كافة أنحاء أوروبا (8)، وبالإضافة لتجارة الجواهر، استورد المغول من الهند السكر والبهارات، بكميات كبيرة (9).

(1) رحلات، ماركو بولو (65/2).

(2) كيخاتو بن أبغا بن هولكو وهو الخامس من ملوك دولة الالخانات. البناكتي، تاريخ (476/1).

(3) المصدر نفسه (477/1).

(4) رحلات، ماركو بولو (107/2).

(5) المصدر نفسه (110/2).

(6) المصدر نفسه (114/2).

(7) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (155/3-177).

(8) المصدر نفسه (156/3).

(9) رحلات، ماركو بولو (197/2).

وكان للؤلؤ والفيروز أهمية كبيرة في السوق، خاصة ما يُصدّر باتجاه أوروبا، وكانت الكميات التي تستخرج كبيرة، إلا أن المغول منعوا التوسع في الاستخراج حتى لا يزيد العرض فيقل الثمن⁽¹⁾.

وكانت تجارة الرقيق حاضرة بقوة في الإمبراطورية المغولية، وكان الناس يتفاخرون بكثرة الجواري، ولا شك أن الحروب كان لها دور كبير في نمو تجارة العبيد، فكان الرقيق يباع في الأسواق بأسعار رخيصة لكثرة الأسرى⁽²⁾.

بالإضافة لعامل الحروب في زيادة ونمو تجارة العبيد، إلا أن عادة بيع الأبناء والبنات في بعض مناطق الدولة، ظهرت بسبب ضيق المعيشة⁽³⁾، وبيع الأبناء لسداد الضرائب للدولة في مناطق أخرى، ما كان له أثر في ازدهار هذه التجارة، كما كان من عادة المغول إذا اكتشفوا سارقاً أو غضبوا على أحد عمالهم، باعوا أولاده⁽⁴⁾.

وازدهرت تجارة الخصيان في البنغال، بحيث يخصى كل من يأسر في الحرب، وتجارته تلقى اقبالاً كبيراً، لأنهم يُستخدمون في حراسة النساء، ويُصدّر جزء منهم إلى الدول المجاورة، وتشتهر البنغال بأنواع البهارات التي تصدر بكميات كبيرة⁽⁵⁾.

وكانت مصانع الملح المنتشرة شمال الصين تعمل بكامل طاقتها وتُصدّر الملح في كل الاتجاهات، واستفاد المغول من هذه المصانع فيقول ماركو بولو "ويجبي الخان الأعظم على هذه السلعة ضريبة تُدر عليه دخلاً لا يكاد المرء يصدق مقداره"⁽⁶⁾.

كما أن التجارة لم تقتصر على المجتمع المدني، فالجيش لا يعتمد في موازنته على المخصصات السنوية المقررة له من الخان فقط، فهو يدير تجارته الخاصة، وللجيش مزارع الماشية التي تباع في الأسواق بشكل سنوي ويتم شراء ما يلزم الجيش من احتياجات⁽⁷⁾.

(1) رحلات، ماركو بولو (109/2).

(2) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (137/3).

(3) المصدر نفسه (190/3).

(4) المصدر نفسه (183/3).

(5) رحلات، ماركو بولو (133/2).

(6) المصدر نفسه (155/2).

(7) المصدر نفسه (14/2).

يقارن ابن فضل الله بين الأسعار في إيران من جهة ومصر والشام من جهة أخرى، وأقر بأن الأسعار في إيران أقل بكثير، وقد يرجع الأمر إلى عدة أسباب، منها طبيعة الأراضي الزراعية، والموارد المائية، بالإضافة إلى المناخ المتفاوت، وعلى الرغم من أهمية هذه العوامل إلا أن سهولة طرق النقل والمواصلات كان لها دور أساسي⁽¹⁾.

لعبت السفن والموانئ البحرية دور كبير في حركة التجارة المغولية، ففي ميناء واحد ترسو خمسة عشر ألف مركب، وكل مركب يستوعب عشرين شخص وخمسة عشر حصان، بخلاف طاقم تشغيل المركب، تستخدم للأغراض التجارية⁽²⁾، يجبي منه المغول مبالغ طائلة، يصف ماركو بولو المشهد بقوله "من المحال علينا نقل فكرة عن احتشاد التجار، وتراكم البضائع، بهذه الميناء التي تعد من أعظم موانئ العالم وأشدها سعة ويسراً، ويحصل الخان الأعظم من هذا المكان دخل ضخماً" ويدفع كل تاجر ضريبة عشرة في المئة من قيمة البضائع، وفي كثير من البضائع تصل قيمة الضريبة لنسبة أربعة وأربعون في المائة⁽³⁾.

الضرائب:

كانت الضرائب من أهم موارد الإمبراطورية المالية، ففرض المغول عدد من الضرائب منها القلان⁽⁴⁾ والقبجور⁽⁵⁾ والأولاق⁽⁶⁾ والبدرقة⁽⁷⁾، ولم يكن المغول الأوائل يتأففون منها⁽⁸⁾. ولم يُعَفَ الجنود والعساكر من الضرائب، وفي حالة خروج المجند إلى الحرب تقوم زوجته بدفع الضرائب نيابة عنه⁽⁹⁾.

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (154/3).

(2) رحلات، ماركو بولو (146/2).

(3) المصدر نفسه (199-198/2).

(4) القلان: دراهم مقررة على البلاد، تجبى من المسلمين وغير المسلمين. مسالك الأبصار، ابن فضل الله (108/3).

(5) القويجور ضريبة تجبى (رأس من كل مائة رأس) وتوزع على الفقراء والمعوزين. المصدر نفسه.

(6) الأولاق: هو خيل البريد وهو أولاغ وهو البريد عامة. المصدر نفسه.

(7) البدرقة: في معنى البائرة: البائرة لوح البريد والبائرة كانت عبارة عن لوحة من الذهب أو الفضة وفي بعض الأحيان من الخشب، وذلك حسب رتب الأشخاص. المصدر نفسه.

(8) المصدر نفسه.

(9) فاتح العالم، الجويني (70/1)، مسالك الأبصار، ابن فضل الله (108/3).

وكان أونك خان يفرض على القبائل ضريبة عشرة في المئة، فيأخذ من كل مئة رأس مواشي عشرة لصالحه، إلا أن جنكيز خان بعد سيطرته على القبائل، عمل على تخفيف الضرائب لكسب ولائها⁽¹⁾.

وأقر جنكيز خان النظام الضريبي السابق في كل دولة يحتلها⁽²⁾، فحين يفتح مدينة يتم جمع كل الأغنياء فيها ويجردهم من أموالهم ويتم التحقيق معهم عن تفاصيل السياسة المالية المتبعة سابقاً⁽³⁾، ثم يقر في غالب الأحيان النظام الضريبي السابق⁽⁴⁾.

وفرضت ضريبة على العامة لتحسين البريد، وتم عمل احصاء عام لكل السكان وضريبة أخرى لتغطية نفقات الجيش، ويذكر الجويني، أن الضرائب كانت تثقل كاهل الشعوب، وحصل أن شكى السكان في بغداد كثرة الضرائب لهولاكو، فألغى عدة أنواع منها⁽⁵⁾.

وفي رواية ماركو بولو عن الضرائب يذكر الكثير من التفاصيل التي لم تذكر لدى غيره ويبرر ذلك بقوله "ونظراً لأن الحساب تم اجراؤه بحضرة ماركو بولو، فقد أتيحت له فرصة الاطلاع على إيرادات جلالته"⁽⁶⁾.

وفي المناطق التابعة لقبولاي خان في الصين مقرات لهيئة الضرائب، يجمع فيها ضريبة يومية على المنتجات والسلع التموينية، وفرضت رسوم عبور على القناطر⁽⁷⁾.

وكانت مصانع الملح المنتشرة شمال الصين تعمل بطاقة إنتاجية عالية، واستفاد المغول من هذه المصانع فيقول ماركو بولو "ويجبي الخان الأعظم على هذه السلعة ضريبة تُدر عليه دخلاً لا يكاد المرء يصدق مقداره"⁽⁸⁾.

(1) رحلات، ماركو بولو (131/1).

(2) فاتح العالم، الجويني (127/1).

(3) المصدر نفسه (130/1).

(4) المصدر نفسه (127/1).

(5) المصدر نفسه (73/1).

(6) رحلات (189/2).

(7) المصدر نفسه (102/2).

(8) المصدر نفسه (155/2).

وكانت الضرائب على البقوليات والسكر والخمور بمقدار ثلاثة وثلاث في المئة⁽¹⁾.

وفي عاصمة الصين الجنوبية وحدها اثني عشر حرفة، يوجد لها اثني عشر ألف مصنع، يأخذ من كل مصنع ضريبة قدرها ثلاثة وثلاث في المئة⁽²⁾.

وأضاف المغول زيادة في الضرائب على البضائع القادمة من الهند، فتدفع ضريبة عشرة في المئة عليها، في حين أن البضائع المستوردة من الأماكن الأخرى تجبى عليها ضريبة ثلاثة وثلاث في المئة⁽³⁾.

كما أن البضائع التي تصل عبر البحر تُدّر مبالغ مالية ضخمة إلى الخزانة المغولية، ويدفع كل تاجر عشرة في المئة من قيمة البضائع كضريبة، وفي عدد كبير من البضائع تصل قيمة الضريبة لنسبة أربعة وأربعون في المئة⁽⁴⁾.

وأعفى المغول العديد من الفئات من الضرائب، فأعفى رؤساء ورجال الدين من كل ملة من الملل، سواء مسلمين أو نصارى وغير ذلك، فمن المسلمين أعفى الصوفية والفقهاء والأطباء، والعلماء، والزهاد والعاملين في الأوقاف بشكل عام⁽⁵⁾.

وشملت الإعفاءات الضريبية المتضررين من تقلبات الأحوال الجوية والأوبئة والأمراض، من المزارعين والتجار، ومربي الحيوانات⁽⁶⁾.

وبالإضافة إلى الإعفاءات الضريبية، سجل في دولة قبولاى خان في الصين تأسيس ما يشبه وزارة الشؤون الاجتماعية، فما أن يتم التبليغ عن أسرة افتقرت أو فقدت مصدر دخلها، حتى يتم تسجل بياناتها التفصيلية، وتخصص لها معونة سنوية من الطعام والملابس، وتكون نفقات هذه الأسر من الضرائب المفروضة على منتجات القماش⁽⁷⁾.

(1) رحلات، ماركو بولو (188/2).

(2) المصدر نفسه (189/2).

(3) المصدر نفسه (188-189/2).

(4) المصدر نفسه (198-199/2).

(5) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (107/3).

(6) رحلات، ماركو بولو (75-76/2).

(7) المصدر نفسه (80/2).

المبحث الرابع: العمارة

حين أعلن عن انطلاق الإمبراطورية المغولية من الخيمة السلطانية، كانت هذه الخيمة- مع بداية الدولة أعلى بناء يمكن تصور تواجده في القبيلة المغولية، وفرضت طبيعتهم البدوية عليهم نمط عمارة خاص، فهم بحاجة إلى التنقل بشكل دائم على الأقل مرتين سنوياً، وتصنع الخيام المغولية من العصي الخشبية كقوائم للخيمة وتجمع على شكل قبة، وتلف باللباد، وتبقى مفتوحة من أعلى الخيمة بقدر معين لدخول الضوء والهواء ويمكن إغلاقها عند الحاجة، وهي خفيفة الوزن سهلة الفك والتركيب تناسب الحركة السريعة⁽¹⁾، كما عرف المغول الخيام المتنقلة فوق العربات، فمنها ما يحمل على أربع عجلات ومنها ما يحمل على عجلين، وتجرب بالخيل أو الثيران، تستخدم أثناء السفر، وهي مغطاة باللباد لحماية الركاب من المطر، وعند توقف العربة توضع بوابتها باتجاه الجنوب⁽²⁾.

ورغم توسع المغول في الفتوحات واحتكاكهم المباشر مع الشعوب المتمدنة إلا أنهم استمروا في نمط الحياة نفسه في خيامهم ومعسكراتهم المتنقلة، ولم يسجل عن جنكيز خان أنه سكن في أي من القصور، لكن المغول استفادوا من عمارة الحضارات الأخرى واستغلوا المدن القديمة وأدخلوا إصلاحات عليها وطوروها، وبنى أوكتاي خليفة جنكيز خان مدينة قراقورم⁽³⁾، وبنى بركة خان مدينة السراي⁽⁴⁾، وبُنيت السلطانية في عهد أوليجاييتو بن أرغون⁽⁵⁾ حفيد هولاكو، وسنذكر هنا ونفرق بين عمارتين؛ العمارة التي ورثها المغول عن الأمم السابقة، واستمروا في رعايتها وتطويرها، والعمارة التي شيدها المغول بجهودهم وتحت إشرافهم.

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (107/3).

(2) رحلات، ماركو بولو (138/1).

(3) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (134/3).

(4) المصدر نفسه (191/3).

(5) أولجاييتو بن أرغون بن آباقا بن هولاكو المعروف عجمد خربنده ثم خدابنده حكم ما بين 703-716هـ.

1304-1316م) في إيران والعراق وهو السلطان الثامن في سلسلة أبناء هولاكو. المصدر نفسه (199/3).

أولاً: العمارة الموروثة عن الأمم السابقة وحافظ عليها المغول:

1. بغداد:

ورث المغول بغداد التي بناها العباسيين على نهر دجلة، وهي في الأصل مدينتين إحداهما بناها المنصور⁽¹⁾، والأخرى بناها المهدي⁽²⁾ وجعل فيها معسكرات الجيش⁽³⁾.

وبين الضفتين بني جسرين، بطريقة عمارة فريدة فوضعت سفن متجاورة في النهر ومدت بينها سلاسل حديدية ضخمة، وصنعت أرضية للطريق من خشب ممدد ومفروش بالتراب، ويتحرك عليه الجمال والخيول والمشاة.

وعلى ضفتي دجلة قصور الخلافة والمدارس والأبنية العلية، والمباني مبنية بالطوب المزين بالنقوش الإسلامية، وتنتشر بينها الحدائق والبساتين، والنخيل المميزة⁽⁴⁾.

وفي بغداد الأوقاف، من الجوامع والمساجد والمدارس والخوانق⁽⁵⁾ والربطات والمستشفيات الطبية، والصدقات الجارية المتعددة، وخصصت هيئات لإدارة شئون الوقف الإسلامي، وقد أقرها المغول ولم يغيروا من أحوالها أو طريقة إدارتها، ولم يتعرضوا لها بأذية، يقول ابن فضل الله "وسألت الفاضل نظام الدين أبا الفضائل يحيى بن الحكيم إن كانت الأوقاف باقية في نواحي هذه المملكة عليها الآن أم تناولتها أيدي العدوان، فأخبرني بأنها جميعها جارية من مجاريها، لم يتعرض إليها متعرض لا في دولة هولاكو ولا فيما بعدها بل كل وقف بيد متولييه ومن له الولاية"⁽⁶⁾.

يسجل ابن فضل الله في هذه النص موضوعية تاريخية فريدة قل ما توجد في نظرائه، فنقل الرواية دون تحيز وبتجرد كامل وأسندها إلى الراوي على طريقة أهل علم الحديث، فكثير

(1) أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي الثالث، أنشأ بغداد ما بين سنة (145 - 146 هـ = 762-763م) وسماها مدينة السلام. مسالك الأبصار، ابن فضل الله (203/3).

(2) المهدي: محمد بن المنصور ثالث خلفاء الدولة العباسية (158 - 169 هـ = 775 - 785 م)، اشتهر بحروبه مع البيزنطيين أنشأ الطرق العامة وحسن جهاز البريد. المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه.

(5) خوانق جمع مفردة خانقاه، مكان يقيم فيه المتصوفة، وهي الصومعة والتكية. المصدر نفسه (206/3).

(6) المصدر نفسه (203/3).

من المؤرخين يقع في دائرة التحيز لمواقفه المبدئية وميوله الشخصية وخلفيته الدينية أو الوطنية، وقد يشكل المؤرخين الرواية التاريخية وفق خلفياتهم الفكرية.

لم يكتفِ ابن فضل الله في النقل عن بطون الكتب أو الأحاديث المرسلة، بل نقل شهادة حية من الواقع، وكما أنه لم ينفِ تعطل بعض الأوقاف وتضررها، لكنه لم يترك المعلومة مرسلة لتكون حمالة أوجه، بل أظهر سبب تراجع الأوقاف الإسلامية في إيران بتجرد فيقول "وكل ما يقال من نقص أحوال الأوقاف بإيران جميعاً هو من سوء ولاية أمورها لا من سواهم"⁽¹⁾، ويبدو أن الخلفية الثقافية والدينية كان لها أثر في تشكل شخصية ابن فضل الله كمؤرخ، فقد عمل قاضياً على المذهب الشافعي مدة من الزمن⁽²⁾، والمؤرخ المتجرد من الأهواء كالقاضي لا يقبل كلاماً أو يقرأ وثيقة دون فحص وتثبت، ولا قيمة لتاريخ مكتوب إن لم يكن للكاتب قدرة على النقد للأصول والمصادر لاستخلاص الحقائق وتفسيرها وعرضها بصورتها الحقيقية.

تحدث ابن فضل الله في مواضع أخرى عن اهتمام المغول بالأوقاف والشئون الدينية الإسلامية، فأعفى العلويين والقائمين على الأوقاف الدينية والزهاد والصوفية، والعاملين في تغسيل الموتى والمؤذنين من الضرائب⁽³⁾.

وقد ذكرنا سابقاً أن جنكيز خان سمح للمسلمين برفع صوت الأذان وإظهار شعائهم الإسلامية بعد منعهم من قبل قبائل النايमान المسيحية⁽⁴⁾، يقول الجويني "ورفرت رايات الإسلام خفاقة، حتى أقصى بلاد الكفر وديار الترك، التي لم يكن قد وصل إليها روائح دين الإسلام، وبني في محاذات معاهد الأوثان مشاهد الرحمن"⁽⁵⁾.

استمر المسلمين في العهد المغولي في بناء الأربطة⁽⁶⁾ والمدارس والأوقاف الإسلامية، في شتى بقاع الامبراطورية، "وليس من بلد ولا سبيل مطروق ولا قرية أهلة إلا وفيها من الرباطات"⁽⁷⁾.

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (206/3).

(2) دول الملوك، المقرئ (159 /2).

(3) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (107/3).

(4) فاتح العالم، الجويني (96/1).

(5) المصدر نفسه (213/1).

(6) مفردة رباط وهو ملجأ الفقراء من المتصوفة. مسالك الأبصار، ابن فضل الله (151/3).

(7) المصدر نفسه.

ووفر المغول الحماية الأمنية للأوقاف الإسلامية، وأحبطوا مخطط إغارة لقبائل الأويغور، على مساجد لمسلمين في يوم جمعة وقتلهم بشكل جماعي⁽¹⁾.

2. الصين:

كانت خان بالق⁽²⁾ عاصمة المغول في الصين، وهي مدينة قديمة كانت تسمى ديدو نسبة إلى الملك الذي بناها، ويسير في منتصفها نهر يشقها إلى نصفين يتجمد في الشتاء، وهي وفيرة الزروع والدواب والخيول والمواشي بشكل يفوق الحاجة⁽³⁾.

ويقع قصر الخان الكبير في وسط المدينة ويطلق عليه -كوك طاق- ومعناه في اللغة المغولية القصر الأخضر⁽⁴⁾.

وخارج سور قصر الخان تقع منازل الأمراء والوزراء، وبالمدينة وفرة في المنتجات الغذائية، وهي رخيصة الأسعار⁽⁵⁾. والصين بها أكثر من ألف مدينة، كلها متصلة العمارة فما أن تخرج من قرية حتى تصل إلى أخرى⁽⁶⁾.

أما مدينة الخنساء⁽⁷⁾ فإنها ترتبط بخان بالق بطريقان بري وبحري يُقطع في أربعين يوماً، وفيها سوق ضخم يقع في منتصفها يمتد على طول المدينة يستغرق المرور به من أوله إلى آخره يوم كامل.

وكانت كل طرق الخنساء مرصوفة بالبلاط، والمباني بها مكونة من خمس طوابق، مبنية من الأخشاب، وتستخرج مياه الشرب من الآبار، والمستوى الاقتصادي لسكانها متوسط إلى ضعيف، وأسعارها متوسطة وتستورد الأغنام والقمح⁽⁸⁾، والرقيق بها رخيص جداً⁽⁹⁾.

(1) فاتح العالم، الجويني (83/1).

(2) مدينة خان بالق أو خان بالغ أو باليق اسم قديم لمدينة بكين الحالية عاصمة الصين، وخان بالق من أعظم مدن الدنيا - مدينة السلطان في وسطها، وهي مدينة بكين حالياً. مسالك الأبصار، ابن فضل الله (131/3).

(3) المصدر نفسه (134/3).

(4) المصدر نفسه (131/3).

(5) المصدر نفسه (134/3).

(6) المصدر نفسه.

(7) هي كانتون الآن وهي ميناء صيني، اسماء ابن بطوطة الخنساء أو الخنسا، والبحارة العرب اطلقوا عليها اسم الخنساء وحرف إلى خانسو ثم كانتون. المصدر نفسه (133/3).

(8) المصدر نفسه (133/3).

(9) المصدر نفسه (137/3).

ووصل رقي أهل الخطا أن بها مطاعم كبيرة، تصنع كل أصناف الطعام، ويرتادها عليه القوم وكبار التجار، ويلحق بالمطاعم أماكن مجهزة للضيافة يتم استئجارها من صاحب المطعم، وتُجهز بالإمكانات وفق رغبات قبل الزبون، وعدد ضيوفه ومدعويه⁽¹⁾، وتدلل هذه الشواهد على المكانة التي وصلتها الخطا من حيث الرقي والتقدم، كما وتؤكد أن الخطا كانت من أهم المناطق التجارية التي يرتادها التجار وكبار المسافرين.

3. ما وراء النهر:

كانت بخاري⁽²⁾ عاصمة ما وراء النهر، قبل دخول الإسلام إليها، تابعة لقبائل الأتراك، وما إن دخلها الإسلام حتى عمرت فيها المساجد والمدارس والخوانق والرباطات والزوايا، وتعددت مباني الوقف وانتشر العلماء بين أهلها⁽³⁾، وفي ما وراء النهر، ثلاثمائة ألف قرية⁽⁴⁾، لو أخرجت كل قرية جندي واحد في الجيش لما شعر الناس بثقل الجهاد.

ويتنافس أهلها في تعبيد الطرقات ووقف الأوقاف، وإنشاء القناطر، ولا يوجد قرية في ما وراء النهر إلا وفيها رباطات، يقول ابن فضل الله "وبلغني أن بما وراء النهر زيادة على عشرة آلاف رباط في كثير منها، إذا نزل النازل أطعم وعلق على دابته"⁽⁵⁾.

وكانت عمارة بخاري، أفضل العمارة في ذلك العصر، وهي ممثلة بالقصور بين الأراضي الخضراء، والمساحات بين المباني واسعة، ومنتزهاتها فسيحة، ويحيط بها سور حمايتها، ولها سبعة أبواب، كل منها ينتهي بطريق، يصل إلى إحدى المدن المجاورة⁽⁶⁾، والمدينة محصنة بالقهندزات⁽⁷⁾ - القلاع-، والمنازل مبنية من حجر الرخام المستخرج من جبل قريب من المدينة، ممتلئ بالموارد الطبيعية، فمنه يستخرج الطين المستخدم في صناعة الأواني والجنس⁽⁸⁾، وأسواقها كثيرة، ومسجد ببيكند الجامع مزخرف بشكل ليس له مثيل في ما وراء النهر كلها⁽⁹⁾.

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (136/3).

(2) بخاري: قاعدة ما وراء نهر جيحون، ينسب إليها إمام المحدثين أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، خربها جنكيز خان، ما زالت بخاري قائمة الآن في جمهورية أوزبكستان. المصدر نفسه (142/3).

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه (152/3).

(5) المصدر نفسه (151/3).

(6) المصدر نفسه (158/3).

(7) قهندزات جمع مفردة قهندز وهي بالفارسية كهن در أي القلعة القديم، المصدر نفسه (161/3).

(8) المصدر نفسه.

(9) المصدر نفسه (162/3).

وسمرقند مدينة محصنة بقلعة ولها أربعة أبواب، باب باتجاه الشرق وهو باب الصين، وهو مرتفع عن الأرض وله درج فائق الطول، وباب باتجاه الغرب، يعرف بباب النوبهار -باب الحديد-، وباب باتجاه الشمال وهو باب بخاري، وباب جنوبي يعرف بباب كش وتعني الباب الكبير، ويقال أن تُبَع هم مؤسسي سمرقند، وأن ذو القرنين أكمل بنائها⁽¹⁾.

ويمر النهر في وسط المدينة وبُني عليه سد لحفظ الناس من الفيضانات، وعلى جانبي النهر أراضي موقوفة تُحرس من السلطات المحلية لحفظها، وبها أسواق وحمامات وخانات⁽²⁾، ومباني المدينة من الطين والخشب، وكل الطرق في سمرقند مرصوفة بالحجارة⁽³⁾.

وما من طريق أو شارع في سمرقند إلا وبه ماء سبيل، ما مجموعه أكثر من ألفي مكان للسقيا.

ولماء السبيل مباني مخصصة، بها قلال من الخزف أو النحاس مثبتة في الجدران⁽⁴⁾. والشاش⁽⁵⁾ أصغر أقاليم ما وراء النهر، وعلى صغره إلا أنه من أكثر الأقاليم مساجد وقرى وكثافة سكانية، وعمارته من الطين كما سمرقند⁽⁶⁾.

ولأشروسنه⁽⁷⁾ مدن كثيرة، ومملكتها واسعة جلييلة، ويقال أن فيها أربعمئة حصن ولها واد عظيم يأتي من نهر سمرقند، ويوجد في ذلك الوادي سبائك الذهب⁽⁸⁾.

ثانياً: العمارة التي أنشأها المغول ابتداءً:

بدأ المغول تأسيس مدنهم الخاصة منذ عهد أوكتاي بن جنكيز خان، ولما لم يكن لهم خبرة في العمارة وإنشاء المدن، وقد استعانوا بالمهندسين المسلمين لإنشائها، ولهذا السبب غلب طابع الفن الإسلامي على العمارة المغولية⁽⁹⁾.

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (165/3).

(2) المصدر نفسه (164/3).

(3) المصدر نفسه (165/3).

(4) المصدر نفسه (151/3).

(5) الشاش: هي جاج من أعمال أشروسنة. المصدر نفسه (170/3).

(6) المصدر نفسه.

(7) أشروسنة: إقليم من بلاد الترك عاصمته بونجكت. المصدر نفسه.

(8) المصدر نفسه (174/3).

(9) فاتح العالم، الجويني (243/1-244).

1. مدينة قرام قورم:

مدينة قرام قورم⁽¹⁾، بنيت بقرار من أوكتاي على بقايا سور معسكر باليغ الذي بناه بوقا خان زعيم قبائل الإيغور، لتكون عاصمة المغول، وبدايةً كان يطلق عليها اسم "ماو وباليغ"، ثم استقر الاسم على قرام قورم نسبة إلى اسم الجبل المجاور لها.

واستقدم للعمل والسكن فيها صناع ومهندسين ومزارعين مسلمين من الخطا وتركستان وفارس، وكانت أكبر تجمع للصناع والمهندسين في ذلك الوقت وشيدت المدينة خلال مدة قصيرة، بسبب توفر كافة الإمكانيات والخبرات اللازمة للبناء.

وهي مدينة كبيرة يعسكر بها نصف جيش الخان الأعظم، وتنتج القماش، وصناعاتها أفضل الصناعات في الصين، وغالب ما يحتاج الخان إليه يستدعى منها، لأنها محط قوافل التجار وملقى طرق، وأهلها أهل صناعات مميزة، ويغلب عليها سكان الطبقة العليا، حيث أنشأت لتكون العاصمة الإدارية للمغول، وتوفد إليها الوفود من كل الأقطار⁽²⁾.

وكان قصر الإمبراطور مصمم بأربعة بوابات، واحدة له شخصية وأخرى لأبنائه وثالثة للحريم، والرابعة للعامة، وضم القصر ثلاثة أجنحة وهي؛ جناح الملك، وجناح الحريم، وجناح المطبخ، وعلى يمين القصر منازل أبنائه وإخوته، وبها أماكن مخصصة للولائم الضخمة، ومرابض للفيلة والجمال والخيول، وسمي القصر بـ "قرشي سوري" وتعني بالمغولية قصر الخان⁽³⁾.

2. قصر قوبلاي بن تولوي في الصين:

ذكر ماركو بولو تفاصيل عن قصر قوبلاي، لم يذكرها غيره، بحكم دخوله القصر والعمل فيه سنوات طويلة، ووصف القصر بأنه مربع محاط بسور وخنق كبير، وداخل السور معسكر لجيش الخان، ثم يوجد سور آخر له ثلاثة بوابات، البوابة الوسطى لا تفتح إلا لحركة الإمبراطور، وداخل السور ثمانية مخازن للأسلحة، فمخزن للسروج ومعدات الخيل، والسهم

(1) قراقورم: عاصمة القآن الكبير للمغول، أنشئت سنة (632هـ=1235م) وبنى اكداي بها أردوباليق واسكنها من الخطا والتركستان والفارس والمستعمرين. مسالك الأبصار، ابن فضل الله (46/3).

(2) المصدر نفسه (134/3).

(3) فاتح العالم، الجويني (243/1-244).

والأقواس في مخزن آخر، ومخزن للجلود، ثم داخل هذا السور سور آخر سماكته كبيرة وارتفاعه خمسة وعشرون قدم، ثم حديقة كبيرة، فيها كل أنواع الحيوانات، وعول وجمال ومواشي وغيرها، ويمتد سور للمشاة أعلى الحديقة، يرتفع ثلاثة أقدام عن المراعي وهي مرصوفة، ثم يدخل إلى القصر الملكي وهو من طابق واحد مبني من الرخام، عليه شرفات، وزينت الغرف بصور المحاربين والحيوانات، المموهة بالذهب، وقاعات ضخمة للولائم، ومطلية بدهان قوي يدوم لسنوات، والزجاج على النوافذ، وفي مؤخرة القصر مخازن للذهب والفضة، وأجنحة للزوجات، ومقابل القصر الكبير للإمبراطور قصر يماثله لابنه الأكبر، وفي نهاية القصر جبل ترابي صناعي مزروع بكافة أشجار الزينة، وبركة صناعية تربي فيها الأسماك لتقدم على موائد الإمبراطور⁽¹⁾.

3. مدينة السراي⁽²⁾:

عاصمة مغول القبجاق وخوارزم، وهي مدينة صغيرة، بنيت على يد بركة خان على شاطئ نهر توران⁽³⁾، وفق العمارة الإسلامية، فيحيط بقصر السلطان سور كبير به منازل الأمراء في أبراج عالية، ويعلو القصر هلال إسلامي مصري، ويقضي الخان فيه فصل الشتاء، وفي المدينة أسواق وحمامات، ويستعمل للحياة اليومية مياه من بركة في وسط المدينة، وتجلب مياه الشرب من النهر في جرار من الفخار، عبر عربات مخصصة للنقل، وتباع في السوق، وبعدها عن خوارزم مسير نحو شهر ونصف⁽⁴⁾، وبنى بها أزيك خان⁽⁵⁾ مدارس العلم الإسلامي، فقد كان محباً للعلم مقرباً علماء المسلمين منه⁽⁶⁾.

4. تبريز والسلطانية:

(1) رحلات (27/2-29).

(2) مدينة السراي: عاصمة السلطان أزيك، وهي من أحسن المدن قال عنها ابن بطوطة أنها في بسيط من الأرض تغص بأهلها كثرة، حسنة الأسواق متسعة الشوارع بها الأص وهم مسلمون والقفجق والجركس والروس والروم وهم نصارى. مسالك الأبصار، ابن فضل الله (176/3).

(3) نهر توران: اسم منطقة يحدها من الغرب خوارزم ومن الجنوب نهر جيحون. المصدر نفسه (191/3).

(4) المصدر نفسه (191/3).

(5) هو أزيك بن طوغريلج بن مونكو تيمور بن توقو خان بن باتو بن جوجي حكم ما بين (712-741هـ).

741هـ=1341م). المصدر نفسه (176/3).

(6) المصدر نفسه.

كانت تبريز عاصمة المغول في إيران منذ عهد هولاكو، قبل نقل العاصمة إلى السلطانية في عهد أولجايتو⁽¹⁾، ولم تكن متسعة الكبر، والماء يجلب إليها عبر وسائل النقل، ولم تكن الزراعة فيها قوية، ومستوى الاقتصادي عالي جداً، وأهلها أهل حشمة وأخلاق، وحسن ملبس⁽²⁾. وكانت تبريز مشى الملك، وهي مدينة متوسطة الكبر، وهي محطة للتجار من كل الاتجاهات، ومناخها شديد البرودة⁽³⁾، وبها قصر الملك، وحوله قصور خاصة الأمراء، وأما عامة الخواتين والأمراء، فإنهم يبنون خيامهم الكبيرة فيها في فصل الشتاء، وبعد انتهاء الفصل وقبل الانتقال إلى أماكن أخرى تحرق الخيام، لكثرة توالد الحيات فيها، على الرغم من التكلفة المالية العالية في إنشاء هذه الخيام، وتشتد الحركة الاقتصادية وتقام أسواق مخصصة في هذا الفصل لكثرة الوافدين إليها⁽⁴⁾.

وينقل من تبريز في الصيف إلى قراباغ⁽⁵⁾، وتعني بالتركية البستان الأسود، وترتبتها سوداء، وبها قرى كثيرة، ينقل إليها صيفاً لكثرة مراعيها ومناخها المعتدل، ويقام مخيم الملك فيها، وتنصب المساجد جامعة والأسواق المتنوعة التي بها شتى أنواع البضائع من ملابس وخياطين والطعام، وأسعارها غالية بسبب تكلفة النقل العالية، وكان المخيم عبارة عن مدينة متنقلة⁽⁶⁾. أما السلطانية فبنيت في عهد أولجايتو بن أرغون⁽⁷⁾ في عراق العجم، في سنة (704هـ=1305م)⁽⁸⁾، لتكون عاصمة جديدة لمغول إيران-أبناء هولاكو-، بدلاً من تبريز، ونقل أولجايتو إلى السلطانية السكان والصناع المسلمين من كل مناطق المملكة، وكانت على تخطيط وفن إسلامي عالي القدر، وبنى بها أسواق وحمامات كما يشير ابن فضل الله كثرة سكان المدينة بسبب عدل أولجايتو وحسن سياسته⁽⁹⁾.

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (198/3).

(2) المصدر نفسه (200/3).

(3) المصدر نفسه (201/3).

(4) المصدر نفسه (199/3).

(5) قراباغ: إقليم واقع في آذربيجان، وهو قره باغ أي الحديقة السوداء باللغة التركية. المصدر نفسه (200/3).

(6) المصدر نفسه.

(7) أولجايتو بن أرغون بن آباقا بن هولاكو المعروف عجمد خربنده ثم خدابنده حكم ما بين (703-

716=1304-1316م) في إيران والعراق وهو السلطان الثامن في سلسلة أبناء هولاكو. المصدر نفسه

(199/3).

(8) تاريخ، البناكتي (501/1).

(9) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (199/3).

**الفصل الرابع: النظام العسكري المغولي من خلال
كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**

المبحث الأول: الجيش المغولي

1. تأسيس الجيش:

تشكلت النواة الأولى للجيش المغولي من جنود قبيلة قيات التي رأسها جنكيز خان وهو في عمر الثالثة عشر، وكان لجنود هذه القبيلة خبرة حربية كبيرة، حيث حاربوا بقيادة والد جنكيز خان بيوسكي بهادر، ودخلوا في حلف مع أونك خان واستطاعوا أن يرفعوا مكانته بين قبائل منغوليا، كما أن جنود القيات تمارسوا الصعاب والشدائد، ففي الوقت الذي اعتلى فيه جنكيز خان رئاسة قبيلته، رفضت القبائل التي كانت متحالفة مع والده الاستمرار في الحلف لصغر سنه، ودارت المعارك بين القيات وحلفاء الأمس سجال، واضطر مقاتلي القيات العيش في البراري وبين الجبال، والاختنايات على ما تصطاده سهامهم، وما تلتقطه أيديهم من ثمار، ما كان له أثر بالغ في تشكل شخصية الجيش القاسية، وطبيعته القوية، وكانت هذه الحياة خير تمرين وتدريب، واستطاع هذا الجيش بعدها إساءة صباح العدو في المعارك، وفرض شروطه في كل معركة خاضها⁽¹⁾.

يصفهم ابن فضل الله بقوله "وأما ترتيب العساكر والقانون المقرر في ذلك، فأعلم أنه لا ينقل في تاريخ قديم ولا حديث أن عسكرياً اجتمع لسلطان كثرة كما اجتمع لهم كثرة عدد وعدة وقوة وصبرا وطاعة لسلطانهم إلا لأجل مشاهرة، ولا توقع مال وجاه بل لمجرد الطاعة حسب"⁽²⁾.

كما أن أهم معارك القيات قبل تأسيس الدولة، كانت المعركة الفاصلة التي استطاعت وهي الفئة القليلة هزيمة قوات أونك خان التي كانت ملاحقة منها لتستأصل شأفتها ولتقضي عليها، فتمكنت القيات من إخلاء مواقعها على عجل، ونصب كمين محكم، أبادت فيه قوات أونك خان، وانتقلت من مرحلة الدفاع إلى الهجوم المعاكس، ثم استثمرت النصر ولاحقت فلول الجيش حتى قتل أونك خان وولده، وبذلك تحقق لجنكيز خان تأسيس دولته⁽³⁾.

يمكن القول أن الجيش الرسمي للدولة المغولية أعلن عنه في عام (599هـ=1203م)⁽⁴⁾، بعد توحيد جنكيز خان القبائل المغولية⁽⁵⁾.

(1) تاريخ، البناكتي (ص: 400).

(2) مسالك الأبصار (108/3).

(3) المصدر نفسه (103/3).

(4) فاتح العالم، الجويني (75/1).

(5) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (104/3).

وتكون الجيش من جنود وقادة قبيلة القيات كنواة أساسية للجيش، مع إضافة قوات القبائل التي تحالفت مع جنكيز خان، أهمها قبائل الأويرات والقنقورات⁽¹⁾، والتحق بالجيش أيضاً من خضع من قبائل الأيغور والنايمان، ومن تبقى من قبيلة الكرايت بعد مقتل زعيمهم أونك خان⁽²⁾.

وشرعت هذه الجيوش بالفتوحات الخارجية والتي استهلها جنكيز خان بالهجوم على الصين عام (607هـ=1211م)، حتى أخضع معظم أراضيها لسيادته، ثم توجهت غرباً مع بداية عام (615هـ=1218م) ودمرت الدولة الخوارزمية⁽³⁾.

وعلى الرغم من انضمام الكثير من القوميات والأعراق إلى الدولة المغولية إلا أن المكون المغولي بقي المسيطر على زمام قيادة الجيش، وبقيت المغولية هي قوة الارتكاز الفعلية في كافة الجيوش، رغم تضائل عددهم مقابل أعداد الجنود من القوميات والأعراق الأخرى في نفس الجيش.

يقول ابن فضل الله عن جند أوكتاي في الصين "وهذا الخان الكبير، ذو ملك كبير، وعسكر مديد وعساكره من المغل عشرون تومانا"⁽⁴⁾، وهي مائتا ألف فارس، وأما من الخطا فما لا يحصى"⁽⁵⁾.

ولم يكن المغول على ثقة تامة بالجيوش الملحقة بهم من القوميات والأعراق الأخرى، وكانوا على حذر دائم، خوفاً من الغدر، فيقول ابن فضل الله في نقله لأحداث معركة وقعت بين بيبيرس⁽⁶⁾ والمغول "فترتب المغل أحد عشر طلباً"⁽⁷⁾ كل طلب يزيد على ألف فارس، وعزلوا عسكر الروم خيفة منهم"⁽⁸⁾.

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (104/3).

(2) فاتح العالم، الجويني (76/1).

(3) المصدر نفسه (111/1).

(4) تومان: فرقة من الجيش عشرة آلاف جندي. مسالك الأبصار، ابن فضل الله (133/3).

(5) المصدر نفسه (132/3).

(6) الظاهر بيبيرس: ولد ببلاد القبجاق سنة 625 هـ وأسر وبيع وحمل إلى القاهرة، كان من المماليك البحرية، تسلم السلطنة بعد السلطان قطز سنة (658هـ=1260م) تصدى للتتار والفرنجة توفي سنة (676هـ=1278م).

مسالك الأبصار، ابن فضل الله (291/3)؛ فوات الوفيات، الكتبي ابن شاکر (235/1).

(7) الطلب هو الفرقة المقاتلة. مسالك الأبصار، ابن فضل الله (296/3).

(8) المصدر نفسه (296/3).

كما أن قبولاى قام بالعديد من الإجراءات التي تضمن استقرار الدولة وعدم تمرد الجيوش أو محاولة الاستيلاء على العرش، ونقل ماركو بولو تفاصيل الحادثة التي حاول فيها نايان أحد قادة جيوش قبولاى في الصين الاستقلال بالحكم، حيث كان تحت إمرة نايان أربعمئة ألف جندي⁽¹⁾.

وأفضل قبولاى الأمر بعد معارك طاحنة، وكان من بين القرارات؛ وضع قواعد عسكرية ثابتة قرب المدن الكبرى في الإمبراطورية، لضمان التحرك السريع لمنع أي حركة عسكرية معادية؛ تغيير قادة الجيوش وتدوير المناصب كل عام⁽²⁾.

كما اعتمد قبولاى إبعاد المجندين عن الخدمة في ولاياتهم الأصلية قدر المستطاع، وتكون مدة الخدمة من أربع إلى خمس سنوات متواصلة قبل العودة إلى الديار⁽³⁾.

كما أنهم أجبروا الأسرى على القتال في صفوفهم الأولى، وشارك في احتلال فناكت الأسرى المسلمين الذين أسروا من أترار، وبخاري وسمرقند، وكان تعداد الجيش في هذه المعركة، خمسين ألف من الأسرى وعشرين ألف من المغول⁽⁴⁾.

2. تنظيم القوات:

انفرد المغول في عصرهم بتنظيم قوات بسيط وفعال، ونظموا جيشهم بنظام الوحدات العشرية، فاللبنة الأولى والمكون الأساسي للجيش هي مجموعة العشرة أفراد يقودها أحدهم، ويسمى أمير العشرة أو "نباشي"، ومن كل عشر مجموعات يكون أمير المئة "بيك"، ثم أمير الألف "هزاره"، فإن وصل العدد إلى عشرة آلاف فرد يسمى قائده أمير التومان أو نويان⁽⁵⁾.⁽⁶⁾

وكان رتبة أمير الألو⁽⁷⁾ أو البكلاري بك⁽¹⁾ تعلو رتبة التومان، وهي أعلى رتبة عسكرية في الجيش، وإليها يرجع أمر الجيوش⁽²⁾، ويتكون المجلس العسكري للخان من أربعة إلى

(1) رحلات (12/2).

(2) رحلات، ماركو بولو (13/2).

(3) المصدر نفسه (182/2).

(4) فاتح العالم، الجويني (118/1).

(5) نويان: نوين: نوين ونويان، لفظ مغولي لأمرء وقواد المغول الكبار، ونوين معناها رئيس تومان أي رئيس

فرقة مكونه من عشرة آلاف. مسالك الأبصار، ابن فضل الله (207/3).

(6) المصدر نفسه (109/3).

(7) الإلو: كلمة مغولية تعني قبيلة وجماعة، فهناك الوس جوجي والوس جغتاي والوس هولوكو. المصدر نفسه

(175/3).

سبعة قادة يحملون رتبة "البكلاري بك" أي قائد الجيش، ويطلق عليهم "أمراء القول"، ولا يصدر قرار للخان إلا بتوقيع هذا المجلس تحت توقيع الخان نفسه، ثم يأتي بعدها توقيع الوزير⁽³⁾. وتتبع لهم كل الأمور العسكرية في الدولة⁽⁴⁾.

وتوافقت رواية ابن فضل الله مع رواية ماركو بولو بخصوص المجلس العسكري، إلا أن ماركو بولو، أفاد أن المجلس مكون من اثني عشر قائداً، ولم يكونوا كما قال ابن فضل الله، وفصل ماركو بولو مهام القادة بشكل أكبر، فذكر أنهم يرفعون تقارير دورية للخان عن أحوال الضباط، سواء لترقيتهم أو لتخفيض رتبهم، بناءً على أدائهم في المعارك، كما أنهم يرفعون توصيات للخان لصرف المكافآت التحفيزية للجنود والقادة، ولا يمكن نقل القواعد العسكرية أو التنقلات بين القادة إلا بتوصياتهم، ويتم من خلالها تحديد أعداد القوات التي تتحرك في أي مهمة، وفق المعطيات الماثلة وتقديرهم للمواقف⁽⁵⁾.

وكان التسلسل التنظيمي للجيش فعال بشكله الهرمي، فإن طلب شيء من أحد الجنود، يصدر قرار من الأمير إلى أمير التومان إلى أمير الألف، حتى يصل إلى أمير العشرة ويقوم بإبلاغه بالمطلوب منه⁽⁶⁾، وفي كثير من الأحيان في حال وجود مهمة خاصة تحتاج أفضل الجنود يتم إبلاغ القادة لفرز جندي من كل مجموعة عشرة، للخروج في المهمة⁽⁷⁾.

وكان الضبط والسيطرة في الجيش عالي جداً، من أعلى الهرم إلى أسفله، والقوات على قدر عالي من الجهوزية للاستنفار المفاجئ، فإذا صدر القرار باستنفار من الاحتياط⁽⁸⁾، يتم استدعاء القوات عن طريق إبلاغ القادة المباشرين، ويقوم كل قائد بجمع أفرادهم في وقت سريع إلى أماكن محددة مسبقاً⁽⁹⁾، وإن ارتكب خطأ صغير أو كبير يرسل الخان من يعاقب به⁽¹⁰⁾، وفي هذا إشارة للسيطرة المركزية على الجيش.

(1) تعني أمير الأمراء. مسالك الأبصار، ابن فضل الله (207/3).

(2) المصدر نفسه (206/3).

(3) المصدر نفسه (207/3).

(4) المصدر نفسه.

(5) رحلات (67/2).

(6) فاتح العالم، الجويني (71/1).

(7) المصدر نفسه؛ ابن فضل الله، مسالك الأبصار (189/3).

(8) فاتح العالم، الجويني (71/1).

(9) المصدر نفسه.

(10) المصدر نفسه.

وفي هذا السياق، عقد الجويني مقارنة بين الجيش المغولي والجيش الأخرى، فاعتبر أن استنفار الجيش المغولي بسرعة عالية تتيح له السبق في المعارك وتحقيق المفاجأة الدائمة، في مقابل جيوش تحتاج عدة أشهر للاستنفار⁽¹⁾.

كما أن الجيوش الأخرى تعتمد على الأعطيات المادية بناءً على التعداد، فبالتالي يقوم أمير الجيش بتزوير الأعداد في الدفاتر الحكومية ليحصل على مخصصات أعلى، وفي يوم الحرب يكتشف القائد أن العدد مزيف⁽²⁾. ويوافق ابن فضل الله الجويني في هذا الموقف بقوله "سلطانها عسكر يقال أنهم عشرون ألفاً، وهم لا يبلغون ذلك"⁽³⁾.

كما أن تسجيل الجيوش المغولية في الديوان لا يتم بتسجيل أسماء الأفراد، كما هي عادة باقي الجيوش التي عاصرت، ولكن يسجل اسم قائد كل فرقة ومجموعة فقط، فعلى سبيل المثال إذا كانت الفرقة من عشرة آلاف فرد يسجل اسم قائد التومان فقط، ويصرف له مكافئات ورواتب أفرادها⁽⁴⁾، ويتم عمل جولات رقابية من ضباط تابعين للخان للتأكد من سلامة الأعداد في مواقيت وأماكن محددة⁽⁵⁾.

3. الحرس الإمبراطوري:

كان للإمبراطور المغولي حرس خاص مكون من اثني عشر ألف فارس لا يفارقونه في حله وترحاله، وهم بالإضافة لكونهم حراس شخصيين ومرافقين للخان، فإنهم كانوا يستخدمون لإظهار القوة والمكانة العالية للخان بين أفراد شعبه وضيوفه من السفراء⁽⁶⁾، وهم من أبناء الأمراء، ويطلق عليهم جنكيز خان لقب الأبناء، ومن مهامهم البقاء على باب خيمة الخان، وتلقي الشكاوى من الرعية⁽⁷⁾.

(1) فاتح العالم، الجويني (71/1).

(2) المصدر نفسه.

(3) مسالك الأبصار (217/3).

(4) المصدر نفسه.

(5) فاتح العالم، الجويني (70/1)؛ مسالك الأبصار، ابن فضل الله (109/3)

(6) رحلات، ماركو بولو (42/2).

(7) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (214/3).

4. تعداد الجيوش المغولية:

لم يكن باستطاعة أحد من المؤرخين حصر عدد جيوش المغول بالتحديد، واجتهد كل مؤرخ على تقريب الأعداد، وفقاً لما نُقل لهم من أحداث المعارك من دلالات، فيقول ابن فضل الله، "فأعلم أنه لا ينقل في تاريخ قديم ولا حديث أن عسكرياً اجتمع لسلطان كثرة كما اجتمع لهم كثرة عدد"⁽¹⁾.

وبعد حادثة مقتل التجار التابعين لجنكيز خان، تحرك باتجاه خوارزم ثمانمائة ألف مقاتل من المغول، من ضمنهم ثلاثمائة ألف فارس⁽²⁾.

وسأل ابن فضل الله عن عدد جيش مغول القبجاق، فُرد عليه بأنه وفي إحدى المعارك استدعى من كل عشرة جندي واحد فقط، فكان عدد الجيش في تلك المعركة مئتان وخمسون ألف⁽³⁾، أي أن تعداد جيش القبجاق لوحده هو مليونان وخمسمائة ألف جندي.

وفي موضع آخر يسأل عن عدد جيش مغول إيران فأجابه المسئول "أما المنزل في دواوينهم فما يبلغ عشرين توماناً، وأما إذا أرادوا ركبوا بثلاثين توماناً، وما يزيد عليها"⁽⁴⁾، أي أن عدد جيش أحفاد هولاكو بلغ ثلاثمائة ألف جندي، وكان ذلك في أواخر عهد المغول في إيران وفي مرحلة ضعفهم⁽⁵⁾.

يقول ابن فضل الله عن جند أوكتاي في الصين "وهذا الخان الكبير، ذو ملك كبير، وعسكر مديد... وعساكره من المغل عشرون توماناً"⁽⁶⁾، وهي مائتا ألف فارس، وأما من الخطا فما لا يحصى"⁽⁷⁾.

وكان نايان الذي خطط للاستقلال عن دولة قبولا في الصين يملك تحت إمرته أربعمائة ألف جندي⁽⁸⁾.

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (108/3).

(2) طبقات ناصري، الجوزياني (124/2).

(3) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (189/3).

(4) المصدر نفسه (108/3).

(5) المصدر نفسه.

(6) تومان: فرقة من الجيش عشرة آلاف جندي. المصدر نفسه (133/3).

(7) المصدر نفسه (132/3).

(8) رحلات (12/2).

وذكر الهمذاني أن جند ولاية واحدة في الصين بلغ تسع وتسعون تومانا، بمعنى أنهم بلغوا تسعمائة وتسعون ألف مجند، أي ما يقارب المليون إنسان⁽¹⁾.

5. القوانين العسكرية والقضاء:

كان للمغول محاكمهم العسكرية الخاصة، ولا يحاكم الجندي أمام المحاكم المدنية، ويتم مقاضاة العسكريين أمام قائد الألوس⁽²⁾، وكانت المحاكم العسكرية تتمتع بهيبة كبيرة في المجتمع العسكري المغولي⁽³⁾، وكانت التقارير ترفع بشكل دوري عن تجاوزات العسكريين إلى الخان⁽⁴⁾، ولا ينظر لعلو رتبة مرتكب الخطأ، فإن وصلت معلومات للخان عن أمير من الأمراء أو عسكري من الجيش توجب عليه العقاب؛ يرسل من يعاقبه، ويسلم الأمير نفسه للعقوبة حتى لو كان منفذ العقوبة أقل منه رتبة، يقول ابن فضل الله "إذا كان أمير في غاية القوة والعظيمة وبينه وبين السلطان كما بين المشرق والمغرب، حتى أذنب ذنباً يوجب عقوبة، بعث إليه ولو من أخس أصحابه من يؤذ به بموجب ما يقتضيه ذنبه، ولو كان من ذنبه ما يوجب قتله، ألقى نفسه بين يديه ذليلاً"⁽⁵⁾، وهي إشارة واضحة على هيبة الدولة وقوة السلطة والقانون.

وأبرز الجويني الانضباط وقوة الطاعة لدى الجنود والقادة المغول، في مقابل قادة الجيوش الأخرى بقوله "ليس كالمملوك الآخرين الذين يتحدثوا بحذر شديد مع مملوكيهم الذين اشتروهم بذهبهم وأموالهم، والذين كلما رأى الواحد منهم لنفسه عشر جياذ في حظيرة لا يقول شيئاً، فإذا ما خولوه سلطة الإشراف على جيش ما وحصل له من جراء ذلك ثروة وسلطة كبيرة، فإنهم لا يستطيعون اقصاؤه عن منصبه، وهؤلاء غالباً ما يعلنون التمرد والعصيان"⁽⁶⁾.

وكانت المساواة حقيقية بينهم، ولا ينظر في التفاضل بين اثنين على فرق الرتب أو المال⁽⁷⁾.

ويمنع القانون العسكري المغولي التنقل بين وحدات الجيش، ومن يخالف يقتل⁽¹⁾، ويبدو أن هذا القانون وضع لمنع تسرب معلومات الجيش أو اندساس الجواسيس، وللمحافظة على

(1) جامع التواريخ، خلفاء جنكيز من أوكتاي إلى تيمور (ص270).

(2) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (207/3).

(3) المصدر نفسه (109/3).

(4) رحلات، ماركو بولو (67/2).

(5) مسالك الأبصار (109/3).

(6) فاتح العالم (71/1).

(7) المصدر نفسه.

أعداد القوات من النقص أو تضخم وحدة على حساب أخرى، وعدم العمل وفق أهواء الجنود، وفيه حفظ لأسرار الوحدات والقادة ومنع لتداول المعلومات بين أفراد الجيش أنفسهم، ويؤكد ذلك أيضاً أن من يمشي بين الجنود بالكذب أو بالنميمة فإن جزاءه القتل، لما لهما من خطورة على الوحدات العسكرية وتفتيت للوحدة الداخلية، وتضليل للقادة المسؤولين، وينقل الهمذاني ما جرى في إحدى المحاكم قول القاضي، "إن القانون العظيم الذي وضعه جنكيز خان، يقضي بأن يقتل النمام والكذاب، وإذا فإن الواجب قتلكم جميعاً"⁽²⁾.

كما نصت الياسا على قتل العائد من المعركة منفرداً بعد مقتل رفاقه، وقد يكون هذا الأمر لاعتقادهم أن العائد تخاذل في بذل الجهد أثناء القتال، أو لفراره من أرض المعركة، وفي هذا التشديد حرص على عدم مغادرة الجنود المعارك وتحذيرهم من أن الفرار من الموت بالشرف نهايته الموت بالعار⁽³⁾.

ويمنع التعامل مع الأسرى دون إذن من القائد، ومن ساعد أسيراً أو وجده هارباً ولم يرده قتل⁽⁴⁾، وكان الجند على قدر كبير من السمع والطاعة، وهم أصبر الجند على قادتهم، دون توقعهم مال أو جاه بل لأجل الطاعة فقط⁽⁵⁾، وعند الاستعداد لدخول معركة أو بداية ارتحال للجيش، يعد الجندي كل معداته وأدوات القتال، بداية من الإبرة والمخيطة إلى كل أنواع السلاح، ويتم عمل طابور أركان عسكري يسمى يوم العرض، ويتم تفتيش كل جندي، وفي حال وجود أي نقص يتم العقوبة والتأنيب بشدة⁽⁶⁾.

نقل الجوزياني قصة غريبة، إن صحت فهي تظهر مدى الشدة والانضباط في المعسكر المغولي، فينقل حدث قيام أحد ضباط الجيش بالقبض على اثنين من الجنود وهم نيام على صهوات خيولهم أثناء الحراسة، وعند إدخالهم أمام قائد كبير في الجيش أقرروا بالفعل، فتم إعدام الأول مباشرة، وقطع رأسه وربطه برأس الثاني، وطيف به في الأرجاء، ثم أعدم هو الآخر ليكون عبرة لغيره⁽⁷⁾.

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (109/3)

(2) جامع التواريخ، الهمذاني، خلفاء جنكيز من أوكتاي إلى تيمور (ص70).

(3) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (154/3).

(4) المصدر نفسه (106/3)

(5) المصدر نفسه (108/3).

(6) فاتح العالم، الجويني (70/1)؛ مسالك الأبصار، ابن فضل الله (109/3)

(7) طبقات ناصري (160/2).

إن صحة هذه الرواية فقد يكون المغول تعمدوا هذا الفعل أمام الضيوف والسفراء لإظهار قوة سطوتهم وممارسة الحرب النفسية على أعدائهم، وما يرجح هذا الرأي أن الحادثة حدثت أمام أحد القادة الغوريين الذي عفى عنهم جنكيز خان وسمح لهم بالعودة إلى ديارهم⁽¹⁾.

6. التدريب:

كان الصيد لدى المغول عادة لا تفارقهم، وشُغف به القادة بشكل كبير، فلا يكاد يتفرغ الخان من معاركه حتى ينتقل للصيد والتجول بين الغابات، ولم يكن الصيد في العرف المغولي مجرد تسلية وممارسة هواية، بل كان مناورة عسكرية تحاكي الحروب المغولية الحقيقية، وفيها اختبار قدرات الجنود والقادة على السواء⁽²⁾، ويشرح ابن فضل الله القصد من الصيد لدى المغول بقوله "ولم يكن غرض السلطان من ذلك مجرد الصيد خاصة، وإنما مراده تمرين عساكره، واستمرار أوامره، وإدماهم على استعمال السلاح، وسفك الدماء، وتغلب القوة الغضبية والمضاهرة على الأرواح"⁽³⁾.

ويشارك في تمرين الصيد الواحد، أكثر من عشرة آلاف مقاتل⁽⁴⁾، ويعد تدريب عملي على المعارك والحروب⁽⁵⁾، ودرجت بين المغول مقولة "صيد الوحوش يناسب أمير الجيوش"⁽⁶⁾.

وفور اصدار الخان أمراً ببدء موسم الصيد، يرسل تعميم لكل الجند المرابطة على الحدود التي سيتقدم إليها الخان، بإرسال دوريات استطلاع، فيخرج من كل عشرة عدة جنود، ويرسمون صورة الوضع ويرسلون تقاريرهم للقادة المختصين بأعداد القطعان وأنواعها، ويحددون لهم الميمنة والميسرة، وبناءً على ذلك يتم تحديد عدد القوات اللازمة، وطبيعة التحركات المطلوبة، وتوضع الخطة قبل بدأ التقدم، ويراعى فيها الإمكانيات المتاحة من أسلحة وعدد قوات لتكون واقعية تتناسب فيها أعداد القوات والإمكانات وطبيعة الأرض واتساع مساحة الهجوم⁽⁷⁾.

ومنذ اللحظة الأولى لإصدار أمر بدأ عمليات الصيد، لا تنقطع أخبار سير العمليات عن الخان ليلاً أو نهاراً، وتظهر أعداد الصيد وتطورات الأحداث، وتفصل فيها الإخفاقات

(1) طبقات ناصري، الجوزياني(160/2).

(2) مسالك الأبصار، ابن فضل الله(110/3).

(3) المصدر نفسه.

(4) جامع التواريخ خلفاء جنكيز من أوكتاي الى تيمور، الهمذاني (ص 67).

(5) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (110/3).

(6) فاتح العالم، الجويني (67/1).

(7) المصدر نفسه.

وأَسبابها، والأثار المترتبة عليها، ويعاقب من يفلت منه صيده أو يخالف الأوامر، ولا يسلم من العقاب أمراء الألف أو المئات، وتكون العقوبة بالضرب أو القتل حسب طبيعة ودرجة الخطأ⁽¹⁾، وتعطي هذه العقوبات، صورة عن شدة الانضباط.

بعد انتهاء كافة عمليات التحضير للصيد، وإنجاز حركات التقدم المطلوبة، يصدر الأمر من الخان لبدء الصيد، وتبدأ الرماية الأولى في التمرين من سلاح الخان نفسه، حيث يتوسط الميدان وحوله عدد من أبناءه ومرافقيه، ثم بعد ساعات الانطلاق الأولى، يصعد الخان إلى منطقة مرتفعة يشاهد منها مجريات التمرين، ويقوم بتقييم كفاءة القادة والجند⁽²⁾.

ويهدف التمرين إلى رفع الكفاءة العسكرية، وتطبيق الاستطلاع العسكري الميداني، وإدامة تمرس الجند على الرماية ورفع اللياقة البدنية، عبر تحمل المشاق والتعب، وتدريب القادة الميدانيين حركات المعارك، وصور المناورات التعرضية الهجومية، من إحاطة والتفاف وتسلل، ثم الإطباق على العدو، وموسم الصيد هو عبارة عن تمرين عسكري مغلق، يُعد فيه الجيش عن الحياة المدنية والقبلية لمدة ثلاثة شهور، وفيه تعلّم لمهارات الهدوء وضبط النفس، وممارسة المراسلات العسكرية وطرق الاتصال والتواصل⁽³⁾.

ولم تخل عمليات موسم الصيد من مهاجمة قوات العدو والاشتباك معها، فيقول الهمذاني "وبعد هذا كانوا يذهبون إلى الصيد في فرق مكونة من عشرة آلاف جندي، وصاروا يستولون على القلاع والولايات التي كانت تصادفهم في الطريق"⁽⁴⁾.

لم يقتصر تدريب الجيش المغولي على مواسم الصيد السنوية، فكانت قوات المغول في الصين والخطا في عهد قبلاي تخيم في أماكن مناسبة للتدريب العسكري، ويفتح باب التجنيد الاختياري للسكان المحليين الذين يرغبون في الانضمام لقوات الجيش مرة سنوياً يتم بعدها تدريبهم وتأهيلهم وإرسالهم للخدمة، يقول ماركو بولو "إذ جرت عادته أن يجري اختياراً سنوياً بين جميع رعاياه، لأحسن ذي أهلية لحمل السلاح، فيلحقهم في الخدمة"⁽⁵⁾.

(1) فاتح العالم، الجويني (67/1).

(2) المصدر نفسه (68/1).

(3) فاتح العالم، الجويني (68/1)؛ مسالك الأبصار، ابن فضل الله (110/3).

(4) جامع التواريخ خلفاء جنكيز من أوكتاي إلى تيمور، الهمذاني (ص 67).

(5) رحلات، ماركو بولو (182/2).

المبحث الثاني:

1. الاتصالات:

يعد الاتصال العسكري من أهم مقومات نجاح العمليات العسكرية وحفظ الأمن في الدول، فلا بد من إدامة الاتصال العسكري بين القيادة الميدانية والعملياتية، للمحافظة على سير العمليات العسكرية وفق الخطط المرسومة مسبقاً، والعمل على تجنب وقوع المضلات أو المفاجئات التي قد تؤدي إلى تغير موازين القوى، وزيادة الضبط والسيطرة على القوات، وتسهيل الاتصالات السريعة سرعة استنفار القوات في الوقت المناسب في أوقات الطوارئ، كما أن نقل المعلومات الصحيحة يقي الجبهة الداخلية للمجتمعات من خطر الإشاعات، والدعاية المعادية وحفظ استقرار النسيج المجتمعي.

حرص المغول على ادامة الاتصال والتواصل بين كل الولايات ومركز الدولة، وعمل القادة المغول على ابقاء الخان على علم بكل التفاصيل، ومع اتساع رقعة الأراضي المغولية، اتجه المغول إلى تبني نظام بريدي سريع، يربط كل أرجاء البلاد، فأنشأت محطات بريد لم يكن لها مثيل في عصرهم⁽¹⁾، وذكر الهمذاني أن إنشاء دور البريد بدأ في عهد منكو واطلقوا عليها اسم " تايان ماه "⁽²⁾، وذكر ابن فضل الله أن اسمها خيل "الأولاق" وخيل "اليام"⁽³⁾.

تتكون محطة البريد من نزل كبير لراحة الرسل والسفراء، ويلحق به أربعمائة من الخيول القوية، وبمجرد وصول الرسل اليها يقومون بأخذ قسط يسير من الراحة ويستبدلون خيولهم المتعبة بأخرى مستريحة، وفي المناطق النائية الوعرة عمل المغول على انشاء محطات بريد مكتفية ذاتياً من حيث الموارد المادية، فنقلوا لجوار كل محطة عدد من المزارعين ليقوموا بزراعة المكان وتوفير احتياجاته الغذائية الحيوانية والزراعية، وكان في الصين وحدها عشرة الآلاف مبنى بريد⁽⁴⁾.

واهتم المغول بتدريب جنود الاتصالات والمراسلين بشكل سنوي، واختبارهم في مناورات عديدة، ويشارك المراسلين، ويوصلون الرسائل بشكل مستمر ليلاً ونهاراً.⁽⁵⁾

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (110/3).

(2) جامع التواريخ خلفاء جنكيز من أوكتاي إلى تيمور الهمذاني (ص269).

(3) المصطلح الشريف (ص: 253).

(4) رحلات، ماركو بولو (69/2).

(5) فاتح العالم، الجويني (68/1).

وقسمت المسافات بين الوحدات القتالية المغولية بناءً، على سرعة نقل المعلومات، فتكون المسافات بين الوحدات ثلاثين يوم أو أربعين يوم، ويمنع أن تزيد عن ستين يوم وذلك في الحالات النادرة، حتى لا تنقطع الأخبار ويبقى الاتصال والترابط بين الوحدات دائماً، لمواجهة أي طارئ بشكل سريع وعاجل⁽¹⁾.

واستخدم المغول ساعة للبريد بين القرى ويكون ساعي البريد عداء سريع يركض لمسافة ثلاثة أميال بين محطتي البريد، ويعلق الأجراس حول جسده، حتى يسمع ساعي البريد في المحطة التالية الصوت قبل وصول زميله بمدة تسمح له للتجهز واستلام البريد ونقله إلى المحطة التالية، ريثما يرتاح زميله، وبهذه الطريقة يصل البريد عبر أنحاء الصين إلى الخان بمدة لا تتجاوز ثلاثة أيام من أقصى البلاد، تجعله على اطلاع دائم بتفاصيل دقيقة وبشكل فائق، ولكل محطة بريد سجل توثيق لعمليات نقل الرسائل يسجل فيه الوقت الذي حضر فيه ساعي البريد والوقت الذي غادر فيه، ويوجد رقابة إدارية تقوم بعمل جولات بشكل شهري على محطات البريد للتأكد من سلامة الإجراءات، وطبيعة سير العمل⁽²⁾.

وكان يرافق كل أمير ألوس طاقم مراسلات خاص يطلق على كل فرد منه "عداء"⁽³⁾.

وفي الرسائل شديدة الخطورة والعاجلة، يقوم المراسلين بعصب رؤاسهم بالقماش، ويحملون لوحات تدل على استعجالهم، وتتطلق الخيول بأقصى سرعة، وقد يستمر المسير بالليل في بعض الحالات⁽⁴⁾.

وكان للبريد المغولي دور كبير في حفظ أمن واستقرار الدولة، فاستخدمت منظومة الاتصالات لإحباط الأعمال المعادية والتخريبية، فنقل معلومات لمنكو خان سمحت له بإيقاف مخطط إيغوري للهجوم على مساجد المسلمين في يوم الجمعة، ولو لم تصل هذه المعلومات بصورة عاجلة لفقدت قيمتها، وارتكبت مجزرة تهدد الأمن والاستقرار الداخلي⁽⁵⁾.

(1) رحلات، ماركو بولو (14-13/2).

(2) المصدر نفسه (72-71/2).

(3) جامع التواريخ خلفاء جنكيز من أوكتاي إلى تيمور، الهمذاني (ص269).

(4) رحلات، ماركو بولو (74-73/2).

(5) فاتح العالم، الجويني (83/1).

كما أن مراكز البريد كانت تستخدم من قبل الرسل الذي يرسلون للدول الأخرى، معادية أو صديقة⁽¹⁾.

بالإضافة إلى مكاتب البريد التي أسست في العهد المغولي، واستخدمت أيضاً وسائل أخرى للاتصالات، فاستخدم المغول الحمام الزاجل لنقل وتبادل المعلومات⁽²⁾، واستخدموا الإشارات في الميدان لتبادل المعلومات بين القلاع، فتتواصل القلاع والمركز بالدخان في النهار وبالنار في الليل، وبينهم إشارات متفق عليها مفهومة⁽³⁾.

وحرص المغول على قطع خطوط الاتصال والتواصل عن أعدائهم، وحرصوا أن يدخل أعدائهم في المعارك بمعلومات مضللة أو معدومة⁽⁴⁾.

وعلى الجهة المقابلة للمغول، اهتم المماليك بالاتصالات ونقل المعلومات، فأنشأت مراكز البريد على غرار مراكز البريد المغولية، وذكر ابن فضل الله تفاصيل وافية عن مراكز البريد المملوكية، وطريقة إدارتها وتأسيسها⁽⁵⁾.

أسس البريد المملوكي في عهد الظاهر بيبرس، بتوصية من شرف الدين العمري، عم ابن فضل الله العمري⁽⁶⁾.

وكانت مراكز البريد المملوكي توضع على مسافات متساوية، بين كل مركز وآخر ثلاثة أميال، وكانت محطات البريد المملوكية تنتشر في كل أنحاء مصر والشام، وتصل الأخبار للظاهر بيبرس في حد أقصاه ثلاثة أيام⁽⁷⁾، وتختلف طريقة تموين وإدارة محطات البريد ما بين المغول والمماليك، ففي حين تُشتري خيول بريد المماليك من مال الدولة⁽⁸⁾، فإن خيول بريد المغول تطلب من السكان المحليين في كل منطقة، ويتكفل السكان بطعامها وكافة متطلباتها⁽⁹⁾.

(1) رحلات، ماركو بولو (69/2).

(2) تاريخ، البناكتي (455/1).

(3) طبقات ناصري، الجوزياني (145/2).

(4) جامع التواريخ خلفاء جنكيز من أوكتاي إلى تيمور الهمذاني (ص103)؛ ماركو بولو، رحلات (13-14).

(5) المصطلح الشريف (ص239).

(6) المصدر نفسه (ص242).

(7) المصدر نفسه (ص252).

(8) المصطلح الشريف، ابن فضل الله (ص245).

(9) المصدر نفسه (ص253).

وكانت أبراج الحمام الزاجل منتشرة في كل أرجاء الدولة المملوكية في مصر والشام، وكانت مدينة غزة مركز رئيسي من مراكز أبراج الحمام الزاجل، فمن غزة تخرج المراسلات إلى الخليل، وإلى القدس، ونابلس، واللد، ثم من هذه المدن إلى مدن الشام الأخرى⁽¹⁾.

واستخدم المماليك أيضاً المنارات في أعالي الجبال أو المباني المرتفعة، لنقل الإشارات والرسائل، فتشعل النار في الليل، ويستخدم الدخان في النهار، لإرسال رسائل تحذيرية عن تحركات المغول، وكل قلعة أو مدينة ترسل الخبر إلى المدن المجاورة لها، وتصل المعلومات من هذه الطريقة في مدة نهار أو ليلة من أقصى ثغور الشام إلى مصر⁽²⁾، وامتدت المنارات من أقصى ثغور الشام إلى مدينة غزة، تُرسل الإشارات من جبل إلى جبل، وما أن تصل الإشارة بالنار أو الدخان إلى غزة، فإنها تحمل بالحمام الزاجل أو بخيل البريد إلى مصر، ويبدو أن سبب ذلك هو انبساط الأرض في غزة، وعدم وجود مرتفعات عالية بها أو بعدها لمسافة طويلة⁽³⁾.

2. الإمداد:

تميز الجيش المغولي عن باقي الجيوش باعتماده على تقليل عبئ الإمداد وثقل الحركة باعتماده على صفات جنوده شديدي البأس، ولا شك أن الصفات التي تحلى بها الجندي المغولي تنطبق على صفات القوات الخاصة وقوات الاستطلاع المتقدم، فهو يعيش مكتفياً بلبن الفرس، وفي أوقات الشدة على شرب دم الخيل، وخبوله لا تأكل إلا الكلاً ولا تحتاج إلى علف⁽⁴⁾، الأمر الذي خفف عبئ التخطيط للإمداد لدى القادة المغول، ولضمان خفة الحركة وسرعتها اعتمد المغول على استطلاع الأراضي الزراعية على الطرق قبل تحرك الجيوش، ففي الوقت الذي تحمل قوات جيوش عدو المغول حمولات ثقيلة تعيق حركتها وسرعتها، اعتمد المغول على الأراضي الخصبة وعلى زراعة أعدائهم كمصدر للإمداد الغذائي⁽⁵⁾، وفي بعض الحالات التي لا تتواجد بها مصادر غذائية، يقوم الجيش بتحويل وجهته إلى الولايات والمدن القريبة من طريقه للحصول على الإمداد المطلوب⁽⁶⁾.

(1) المصطلح الشريف، ابن فضل الله (ص254).

(2) المصدر نفسه (ص259).

(3) المصدر نفسه (ص261).

(4) رحلات، ماركو بولو (1/142).

(5) المصطلح الشريف، ابن فضل الله (ص261).

(6) جامع التواريخ خلفاء جنكيز من أوكتاي إلى تيمور، الهمذاني (ص242).

واعتمد المغول أيضاً على الغنائم في الحروب وسلاح العدو، لتعويض النقص في المعارك⁽¹⁾، وكانت قوات الهندسة ترافق الجيش، وتعمل على استغلال الموارد الطبيعية والمادية في الأماكن التي توجد بها قوات الجيش لصناعة العتاد بدلاً من نقله⁽²⁾.

وعلى الرغم من أهمية اعتماد المغول على خفة الحمولة والاستفادة من أرض العدو والأراضي في الطرق، وما لها من إيجابيات تساعد في سرعة الحركة والمناورة وكسب الوقت، إلا أن هذه الخطط لم تخلو من سلبيات خطيرة على الجيش، وكان الجيش مضطراً لتحريك قواته ونقلها في فصلي الشتاء والصيف، نظراً لضرورة توفر المراعي اللازمة لقطعانه ومواشيهِ⁽³⁾.

وقد فهم أعداء المغول طريقة عملهم واطلعوا على نقاط الضعف في جهاز إمدادهم، وعملوا على ضرب المغول في نقطة ضعفهم⁽⁴⁾.

شكل الممالك قوات خاصة لحرق الأراضي الزراعية على طريق الجيوش المغولية، لحرمانها من الموارد وتدمير إمداداتهم، يقول ابن فضل الله عن ذلك "كانت تحرق إضعافاً لهم وإقعاداً لحركاتهم، إذ كانوا من عاداتهم لا يتكلفون علوفة لخيولهم، بل يكلونها إلى ما تنبت الأرض: فإذا كانت أرضاً مخصبة سلكوها، وإذا كانت مجد تجنبوها"، ولم يستدرك المغول الأمر إلا في مراحل متأخرة من الصراع، وبعد فهمهم قصد الممالك من ذلك الأمر، قاموا بتخصيص قوات ترابط على الطرق لمنع حرقها واستهدافها، وهو أمر بلا شك يرهق الخزينة والجيوش المغولية ويزيد التكلفة ويرفع نسبة الخسائر⁽⁵⁾.

ومع أهمية منع استفادة المغول من الموارد، اتبع الممالك استراتيجية الحرمان من المصادر، وقام الممالك بتقوية القوات المخصصة لإشعال الحرائق، وبدأوا باستخدام طرق مبتكرة في الحرق، فتقوم القوات المخصصة لذلك بالاختفاء في الأودية وكهوف الجبال، وفي الأيام شديدة الريح، تربط في ذيول الثعالب والكلاب الوحشية شعل من النار، ثم تطلق في البرية لتحرق النباتات، قال ابن فضل الله "وكان أصحابنا يجدون في هذا رفقا ودفعاً عن مباغته الأطراف ومهاجمة الثغور"⁽⁶⁾.

(1) جامع التواريخ خلفاء جنكيز من أوكتاي إلى تيمور، الهمذاني. (ص254)

(2) المصدر نفسه (ص286).

(3) رحلات، ماركو بولو (51/1).

(4) المصطلح الشريف، ابن فضل الله (ص261).

(5) المصدر نفسه.

(6) المصدر نفسه.

كما أن إهمال المغول لخطط الإمداد عرّضهم في أوقات كثيرة للشدة والجوع، ففي حملة أوكتاي على بلاد الخطا، استمر في المسير لأكثر من عام، فلما حل العام الثاني للحملة، جاع الجيش ونفذت نفقاته، وأكل الجنود العلف الجاف وأي حيوان يصادفونه، ثم أنهم أكلوا لحوم البشر لشدة ما هم فيه⁽¹⁾.

وفي عهد منكو، أرسلت حملة على بلاد الخطا بقيادة قبولاى وكان أهل الخطا قد تنبهوا أيضاً إلى نقطة ضعف الإمداد لدى المغول، فقاموا بإفراغ الطرق من أي مواد تصلح لإمداد الجيش قبولاى، ما أدى إلى تعطل مسير الجيش، ثم تغيير الخطة وتحويل الحملة إلى اتجاه آخر⁽²⁾.

كما أن المغول أخطأوا في اختيار بعض مواضع المدن، ولم يراعوا فيها توفر الإمدادات، فمدينة قراقورم العاصمة كانت تستورد كل ما يلزمها من المواد الغذائية، وحين تمرد أريق بوكا على قبولاى، أمر الأخير بقطع الإمداد عن مدينة قراقورم وتجويعها، حتى اضطر أريق بوكا، للاستسلام⁽³⁾.

وأرسل أريق بوكا رسالة استسلام واعتذار قال فيها "إننا نحن الإخوة الصغار قد ارتكبنا ذنباً مدفوعين بدافع الجهل، وأخطأنا، وأنت أخي الأكبر تعرف الجزاء الذي نستحقه، وحيث ما تأمر سوف أجيء... وسوف أشبع الدواب وأسمنها، ثم أتوجه إلى الحضرة"⁽⁴⁾.

3. سلاح الهندسة:

اكتسب سلاح الهندسة أهمية كبيرة في الجيش المغولي، لما له من أثر كبير في تسهيل مهام القوات، وإعاقة وأفشال عمل العدو، فعملت الهندسة المغولية على إنشاء الطرق وممرات العبور، وفتح الثغرات وإزالة الموانع المعادية، وإنشاء موانع، وتدمير الأهداف الحيوية للأعداء، وإنشاء التحصينات، وصناعة المواد والآلات العسكرية، وقطع موارد الأعداء وحرمانه من موارده⁽⁵⁾.

(1) جامع التواريخ خلفاء جنكيز من أوكتاي إلى تيمور، الهمذاني (ص33).

(2) المصدر نفسه (ص242).

(3) المصدر نفسه (ص251)؛ تاريخ، البناكتي (1/438).

(4) جامع التواريخ، الهمذاني، خلفاء جنكيز من أوكتاي إلى تيمور، الهمذاني (ص251).

(5) طبقات ناصري، الجوزياني (2/132).

كان المغول يواجهون صعوبة كبيرة في التعامل مع القلاع، ولم تكن إمكانياتهم الهندسية كبيرة تتيح لهم المواجهة، وفي إحدى معارك خرسان حوصرت قلعة لمدة شهرين وحين فتحها المغول تبين أن فيها سبعة مقاتلين فقط⁽¹⁾، وبناءً على ذلك عمل المغول على استدعاء خبراء التصنيع الأجنبي للعمل في طواقم جيوشهم، واستدعى عدد من خبراء المناجق من أنحاء البلاد، فاستدعى إلى خرسان خبراء من الموصل⁽²⁾، واستعان قبولاى بالأخوين البنادقة -والد وعم ماركو بولو- في الصين⁽³⁾ لنفس السبب، وفي الخطأ استدعى رجل مسلم من دمشق يدعى طالب، وأبنائه أبو بكر، وإبراهيم ومحمد لصناعة المنجنيق المعروف بالإفرنجي⁽⁴⁾.

وكانت المناجق تعمل على تركيز ضرباتها على منطقة معينة من جدار القلعة لتدميره وفتح ثغرات تناسب عبور القوات منها⁽⁵⁾، واستخدمت المقذوفات الحجرية والنفطية الحارقة⁽⁶⁾، وتعمل قوات الهندسة بالتوازي مع ذلك على إزالة موانع الخنادق عبر ردمها وتسوية الطريق فوقها لعبور القوات⁽⁷⁾، وصنعت السلاالم العالية لاعتلاء أسوار القلاع⁽⁸⁾.

وتُصنَّع الهندسة قوارير من النفط معدة للاستخدام في حرب المدن، فيقوم الجنود المغول بإلقائها على هيئة القنابل اليدوية لحرق المنازل والتحصينات، لحرمان العدو من ملأجئه⁽⁹⁾.

وقام سلاح الهندسة بإنشاء الطرق البحرية وشق القنوات المائية لفتح خطوط مواصلات، لضمان حرية الحركة للقوات المغولية وسرعة وصولها عبر الأنهار والبحار⁽¹⁰⁾.

وصممت الهندسة المغولية قوارب عسكرية تستطيع مقاومة النار، عبر لفها بالجلد واللباد والطين المبلل، واستخدمت السلاسل الحديدية البحرية لمنع تقدم السفن⁽¹¹⁾.

(1) طبقات ناصري، الجوزياني (145/2).

(2) المصدر نفسه (217/2).

(3) رحلات، ماركو بولو (159/2).

(4) جامع التواريخ خلفاء جنكيز من أوكتاي إلى تيمور، الهمذاني (ص286).

(5) طبقات ناصري، الجوزياني (132/2).

(6) فاتح العالم، الجويني (119/1).

(7) طبقات ناصري، الجوزياني (132/2).

(8) فاتح العالم، الجويني (126/1).

(9) المصدر نفسه (149/1).

(10) رحلات، ماركو بولو (162/2).

(11) فاتح العالم، الجويني (119/1).

واستخدم المغول سياسة قطع المياه عن المحاصرين، وسد طرق المواصلات سواء بالقوات أو بالموانع من الخشب أو الحجارة⁽¹⁾.

وكان من واجبات الهندسة إعادة ترميم المدن بعد فتحها واصلاح ما تم خلال الحرب والمعارك، لكن يُراعى أن لا يتم إعادة بناء التحصينات القوية في المناطق المتوقع سقوطها مرة أخرى في المناطق الرخوة وعلى الأطراف، لمنع العدو من الاستفادة منها مرة أخرى في حال نجاح في إعادة السيطرة عليها⁽²⁾.

وكان واجب بناء الجسور على الأنهار لعبور القوات حمل ثقيل على قوات الهندسة، ولم تكن إقامة الجسور في المعارك تخلو من الأخطار، وفي معظم الأحيان يكون تمديد الجسور أثناء المعارك، بسبب عمل العدو على قطعها ومنع استخدامها، وفي إحدى معارك قبولا في الهند، لم يستطع الجيش عبور النهر من الجسر الذي صنع، وسقط عدد كبير من جنود المغول في النهر، بسبب تركيز النيران المعادية عليه⁽³⁾.

4. الرواتب:

كان الجزء الأكبر من نفقات الجيش يعتمد على ما تجنيه الدولة من الضرائب⁽⁴⁾، ولم تقتصر موازنة الجيش على موارد خزينة الدولة، بل كانت موارده المادية متعددة، فكانت للجيش تجارته الخاصة، التي تدر عليه أموال إضافية تدخل في موازنته، ودخلت الجيوش في تجارة المواشي؛ فللجيش قطاعان خاصة به يقوم بتنميتها ورعايتها، وبيع ألبانها وجلودها ولحومها في الأسواق بشكل سنوي، ويستبدلها بالمواد والمعدات التي تلزمه من الأسواق⁽⁵⁾، وشهدت المدن التي تعسكر فيها الجيوش انتشار لمصانع السلاح ومستلزمات الحروب⁽⁶⁾.

وكان سلم الرواتب في الجيش المغولي يعتمد على الرتبة العسكرية، فمن الجندي إلى أمير العشرة راتب مائة دينار سنوياً، ولا زيادة في راتب أمير العشرة عن الجنود، لكن له مزايا عسكرية، ولأمير الألف راتب ألف دينار سنوياً، ولقائد التومان في عهد هولاكو عشرة آلاف دينار، وبعد انتهاء عهده، وتقادم الزمن أصبح راتب قائد التومان خمسمائة ألف دينار، على

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (236/3).

(2) فاتح العالم، الجويني (122/1).

(3) جامع التواريخ خلفاء جنكيز من أوكتاي إلى تيمور، الهمذاني (ص224).

(4) رحلات، ماركو بولو (183/2).

(5) المصدر نفسه (14/2).

(6) المصدر نفسه (156/2).

الرغم من عدم تغيير قيمة رواتب باقي الجنود، وقائد الجيش بكلاري بك يتقاضى راتب ثلاثة مليون دينار سنوياً، بالإضافة للخدام والاقطاعات المخصصة لكل منهم⁽¹⁾.

كما خصص لكل مجند في الجيش اقطاعات من الأراضي التي حصلوا عليها كغنائم من الحروب، وتقدر قيمتها حسب الرتبة والشجاعة⁽²⁾، وتقام بها منازل الجنود، وتكون مراعي للمواشي⁽³⁾.

أما بخصوص المناصب المدنية في الدولة فيتضح أن راتب الخاتون مليون دينار، وراتب الوزير مليون وخمسمائة ألف دينار، وأما الكتاب فلهم راتب ثلاثمائة ألف دينار، وراتب قاضي القضاة، عشرة آلاف دينار سنوياً⁽⁴⁾، بالإضافة إلى المكافآت، والاقطاعات، التي يتصرف فيها بحرية، من بيع أو شراء⁽⁵⁾.

وفي مقارنة رواتب المؤسسة العسكرية والمدنية، يتضح أن راتب البكلاري بك -أمير الجيوش- هو أعلى راتب في الدولة، ثم يأتي بعده راتب الوزير، ثم الخاتون، قائد التومان العسكري، ثم الكتاب.

وللمغول سياسة في إبقاء الأحوال المالية في البلاد التي يفتحونها على ما كانت عليه في العهد الذي سبقهم، وفي حال استخدام جنود من الدولة المفتوحة، يتم إقرار رواتبهم القديمة، ويستمرروا عليها⁽⁶⁾.

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (208/3).

(2) المصدر نفسه (209/3).

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه (210/3).

(5) المصدر نفسه (209/3).

(6) المصدر نفسه (194/3).

المبحث الثالث: أصول الحرب المغولية

جرت العادة على أن يكون لكل جيش وقوة مقاتلة، ومبادئ وأصول تقاتل على أساسها وتكون لها قاعدة في التفكير والتخطيط للمعارك، وإن لم تكن هذه المبادئ والأصول مكتوبة لدى المغول، فإنه من الممكن استنباطها من تاريخ المعارك والحروب، وجرت للمغول عادات وقواعد مبدئية تقاتل عليها جيوشهم، وتندرب عليها قواتهم، مثل التدريب على المفاجئة والمباغلة من خلال شكل المناورة بالتسلل والاطباق، وحشد القوة على كل جبهة بما يناسب طبيعة الأرض وعدد القطعان المراد صيدها، وتجهيز الامدادات، والتعاون، والعديد من القواعد الأخرى⁽¹⁾.

أصول الحرب:

عرف اللواء محمود شيت خطاب أصول الحرب بأنها "الجوهر الذي في القائد -السجية- الصحيحة في التصرفات في الحرب، وهي العنصر الذي يتكون منه مسلك القائد في أعماله بصورة طبيعية وغير متكلفة"⁽²⁾، وفي تعريف آخر هي "دلائل عسكرية أساسية، يزيد العمل بها فرصة الحصول على نتائج أفضل، إذا طبقت بشكل متقن وصحيح، في الوقت المناسب"⁽³⁾.

وبالمجمل فإن أصول الحرب مجموعة من المبادئ إذا ما طبقت بشكل صحيح تعطي أفضل نتيجة مرجوة من الحرب.

في هذا المبحث نستنبط أصول ومبادئ الحرب المغولية من خلال البحث التحليلي التاريخي على النحو التالي:

1. مبدأ التأمين:

"مجموعة من الإجراءات والتدابير التي تضع القيادة والقوات في مأمن من مباغلة العدو لها، وتسمح للقائد بالحصول على الفترة الزمنية اللازمة، والمنطقة الملائمة لإجراء المناورة المخطط لها والمصمم على تنفيذها"⁽⁴⁾.

يمكن اختصار التعريف بالقول، أن مبدأ التأمين يقصد به اتخاذ إجراءات تضمن مباغلة العدو.

(1) ينظر في مسالك الأبصار، ابن فضل الله (100/3-127).

(2) الرسول القائد (ص312).

(3) واقع تطبيق القيادة العسكرية لكتائب القسام أصول الحرب خلال معركة 2014م، الدالي (ص6).

(4) المصدر نفسه (ص40).

حرص المغول على تحقيق مبدأ التأمين في كل المعارك والتحركات العسكرية، فيحرص القائد المغولي على اتخاذ اجراءات تضمن مفاجئته لأعدائه، وإجبار العدو على القتال بدون استعداد مسبق، عبر العديد من الطرق والوسائل. وخذع المغول أعدائهم من خلال تضليلهم عن طبيعة تحركات جيوشهم، ففي العديد من المعارك بين مغول إيران وأهل خراسان، تقدم المغول على هيئة رعاة أغنام يبحثون عن مراعي، فإذا وصلوا لأهدافهم أطبقوا عليها، بشكل مفاجئ، ما يمنع عدوهم من القيام بأي ردة فعل⁽¹⁾، وفي معركة أخرى تسللت القوات بين الأشجار الكثيفة، واعتقد سكان المدينة أن المغول ما هم إلا قافلة من التجار، يصف الجويني الموقف بقوله "وتقدموا ببطء وتؤدة، وظن مراقبو السور أن هؤلاء جماعة من التجار حتى وصلوا باب قلعة نور فأظلم النهار عليهم، وغشيت الظلمة أعينهم"⁽²⁾.

كما أن المغول يقومون بتسيير قوات استطلاع في مقدمة الجيوش، تسبقهم بمسير عدة أيام، وذلك لضمان عدم تفاجئ قوة الجيش الرئيسية بأي قوات معادية أو وقوعها في كمائن، وفي حال وقوع القوة الاستطلاعية في موضع نُجبر فيه على الاشتباك، تكون أعطت إنذار مبكر لقوة الجيش الرئيسية، لتغيير اتجاهها أو تعديل خططها بما يتناسب مع الموقف⁽³⁾، كما أنه ومن ضمن واجبات هذه القوات، استطلاع الأرض وصلاحياتها لعبور الجيش منها⁽⁴⁾، وتسمى هذه القوات عسكر الطليعة أو "الجلو"⁽⁵⁾، وهم على درجة عالية من الجهوزية والاستعداد القتالي، ويتم اختيارهم بعناية فائقة⁽⁶⁾، كما أن المغول يدرّبون جنودهم على الاستطلاع بشكل دائم، وقد ذكر سابقاً مهام الاستطلاع في موسم الصيد، وما له من أهمية في نقل المعلومات للقائد، ليتجنب قدر المستطاع الوقوع في أي أخطاء⁽⁷⁾.

كما أن سرعة الاتصال ونقل المعلومات عبر مكاتب البريد المنتشرة في البلاد وجيش المراسلين المخصص لنقل الرسائل البريدية، أعطى قادة المغول تصور واضح عن طبيعة التجهيزات اللازمة لأي خطر، والإعداد الجيد لملاقاته قبل فترة كافية، وتأمين القوات بالشكل

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (147/3).

(2) فاتح العالم (126/1).

(3) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (296/3).

(4) جامع التواريخ خلفاء جنكيز من أوكتاي إلى تيمور، الهمذاني (ص 221).

(5) العسكر الجلو: عسكر الطليعة وجلو هي الطليعة من اللغة الفارسية. مسالك الأبصار، ابن فضل الله (319/3).

(6) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (296/3).

(7) فاتح العالم، الجويني (67/1).

الصحيح⁽¹⁾، واستخدم المغول الجواسيس لجمع المعلومات، وفي كثير من الأحيان يرسل السفراء بحجة أو بأخرى إلى أعدائهم بغرض جمع أكبر قدر من المعلومات التي لا يمكن جمعها إلا بالدخول إلى أرض العدو⁽²⁾.

ومقابل حرص المغول على وصول المعلومات لهم بسرعة كبيرة، حرصوا على قطع المعلومات عن العدو، ففي معارك قبولاى بن تولوي مع نايان - قائد جيشه الذي تمرد عليه في الصين - ، قطع قبولاى كل خطوط المواصلات بين المدن، ومنع حركة التجار والمدنيين، وكل من تحرك اعتقل، وذلك لضمان عدم وصول معلومات لنايان تتيح له التجهز لصد هجمات قبولاى⁽³⁾.

واستخدم المغول الأسرى للقتال في صفوفهم الأمامية، في خطوة للمحافظة على القوة المغولية ومنع تأكلها، ليمتص الأسرى الصدمة الأولى من ضربات العدو⁽⁴⁾.

2. وحدة القيادة:

ويقصد بها، "توجيه كافة التدابير والجهود تحت قيادة واحدة بقصد الوصول إلى الهدف"⁽⁵⁾. كان جنكيز خان يعي بشكل كامل أهمية هذا المبدأ في توحيد الدولة واستمراريتها، فعمل جاهداً قبل تأسيس دولته على جمع كافة القبائل وقواتها تحت قيادة واحدة، وقانون واحد، ولم يكن يسمح لأحد بالاجتهاد خارج الاطار العام للهدف المنشود، وتم إقرار هذا المبدأ في اجتماع القوريلتاي الأول، واهتمت قوانين الياسا بهذا المبدأ بشكل كبير، حتى أنهم أوصلوها إلى درجة القداسة، ويمنع تجاوز هذا المبدأ بأي حال⁽⁶⁾، والتزم الجيش والمجتمع المغولي بالطاعة إلى أبعد الحدود، ووردت الكثير من الأمثلة تؤكد التزام المغول بهذا المبدأ بشكل منقطع النظير، والتزم قادة المغول بأدق تعليمات جنكيز خان ولم يتجاوزوها مطلقاً، حتى لو أرسلت التعليمات عبر أدنى الجنود إلى أكبر الأمراء⁽⁷⁾.

ولم يخالف هذا المبدأ إلا وتسبب بالهزيمة، وتشنت الشمل، فبعد وفاة والد جنكيز خان تفرقت القبائل بسبب عدم اجماعها على قيادة جنكيز خان لحداثة سنه، ثم عاشوا بهذا التشنت

(1) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (110/3).

(2) تاريخ، البناكتي (461/1).

(3) رحلات ، ماركو بولو (12/2).

(4) فاتح العالم، الجويني (126/1).

(5) واقع تطبيق القيادة العسكرية لكنائب القسام أصول الحرب خلال معركة 2014م، الدالي (ص42).

(6) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (103/3-108).

(7) المصدر نفسه (109/3).

سنوات طويلة، ولم يعلوا شأنهم مرة ثانية إلا بعد الوحدة⁽¹⁾، وفي معارك فتح بخاري، اختلف جوجي وجغتاي ابنا جنكيز خان اللذان كانا على رأس القيادة ما أدى إلى تعثر العمليات العسكرية، فلما علم جنكيز خان بهذه الأنباء، أرسل ابنه أوكتاي لتولي القيادة، وجمع الكلمة تحت رأي واحد، ما كان له أثر كبير في إعادة سير المعارك لصالح المغول⁽²⁾.

كما أن كيوك بن أوكتاي لم يراعِ هذا المبدأ، حين تولى العرش خلفاً لوالده ما أدى إلى خلاف كبير بينه وبين باتو بن جوجي، وتحركت الجيوش المغولية لتقاتل بعضها، إلا أن تدخل سريقتي بيكي زوجه تولوي بن جنكيز خان صحبة الكلمة القوية في الدولة، وإقامة المجلس وانتخاب منكو بن تولوي لرئاسة الإمبراطورية، أعاد حركة الإمبراطورية المغولية إلى مجاريها، وأدى إلى معاودة الفتوحات، وإعادة جمع الشمل المغولي⁽³⁾.

وأسس المغول نظام الوحدات العشرية، للتخلص من الولاءات القبلية، وتحويل الولاء للدولة، وكان الانتماء في الوحدات العسكرية لقائد التومان بشكل أساسي، وذكرنا سابقاً منع الانتقال من تومان إلى آخر، وأن مخالفة القائد العسكري تعرض فاعلها للقتل⁽⁴⁾.

وشملت التدريبات على الصيد تعزيز لهذا المبدأ، فالتحركات كاملة لا تبدأ إلا بقرار من الخان نفسه، ولا يحق لأحد بدأ الصيد مهما كانت الظروف بدون التعليمات الواضحة من المستوى الأعلى، ولا يتم فتح النار إلا بعد الرماية الأولى من الخان نفسه وسط الميدان⁽⁵⁾.

عمل جنكيز خان على تعزيز هذا المبدأ بكثير من الجهود، منها ما كان يوصي به أبنائه، وما يضرب لهم من أمثلة، وفي الوقت الذي أراد فيه أن يولي أوكتاي العهد بعده، جمع أبنائه وإخوانه في مجلس القوريلتاي، وحرصهم على الوحدة، وأحضر سهم واحد فكسره بسهولة، ثم أمر بمجموعة من السهام مترابطة، وأمر بكسرها فلم تكسر، وتحدث عن الوحدة وأهميتها⁽⁶⁾، فقال جنكيز خان "فالسهم وحده ضعيف، فإذا ما تضاعف عدده برفاقه كانوا لبعضهم عوناً وسنداً يعجز الأبطال عن كسره والنيل منهم... فما دامت مظاهر التأييد ظاهرة بينكم أيها الإخوة اشتد الساعد،

(1) تاريخ، البناكتي (1/ 400).

(2) جامع التواريخ خلفاء جنكيز من أوكتاي إلى تيمور، الهمذاني (ص120).

(3) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (3/ 114).

(4) المصدر نفسه (3/ 109).

(5) فاتح العالم، الجويني (1/ 68).

(6) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (3/ 112).

كل منكم بمساعدة الآخرين، ولن يستطيع أصحاب الشوكة والقوة النيل منكم أو الانتصار عليكم⁽¹⁾.

3. الروح المعنوية:

يقصد بها "الصفات التي تميز الجيش المُدرَّب عن العصابات، بها تظهر الطاعة القائمة على الحب وتبرز الشجاعة في القتال، والصبر على تحمل المشاق، وتبرز كل المزايا التي تجعل الجندي مطيعاً باسلاً صبوراً"⁽²⁾، وبناءً على هذا التعريف فالروح المعنوية هي الرغبة واليقين بالانتصار رغم كل ما يواجهه من مخاطر.

مهما حمل الجندي من سلاح وعتاد، وبغض النظر عن قدرة الجيش على حشد الأعداد، إلا أن المعنويات هي التي ترفع قدرة الجيش أو تخفضه، فالروح القوية ترفع الفئة القليلة إلى مراتب المنتصرين، والروح الضعيفة كفيلة بهزيمة أكبر قوة، والمعنويات العالية تولّد شعور بالمسؤولية وتحذو بالجنود لتقبل الخسائر والحرص على القتال إلى آخر رمق، كما للروح المعنوية من أثر مساعد للمقاتلين على اجتياز المهام بالغة الصعوبة بكفاءة عالية، مثل مهام الاستطلاع وطلائع الجيش والعمل خلف الخطوط، والمهام الخاصة.

وتعزز معنويات الجيوش بالعديد من العوامل، منها الثقة الكاملة بالقيادة، وكفاءتها، وشعورهم بتفوق قضيتهم وعدالتها، إدانة العدل بين الجنود والقادة وشعور الجندي بالمساواة، وتواجد القائد بين جنوده والتحام مصيره بمصيرهم، وقتاله بشجاعة أمامهم، كما للتدريب الفعال أثر كبير في زيادة الروح المعنوية.

وكان المغول يؤمنون بقوانين الياسا إيماناً راسخاً، وتعززت المعنويات بسبب العدالة في التعامل، وتأكد الجنود أنهم سيحصلون على حصصهم من الغنائم دون تمييز⁽³⁾، وكان لتواضع القادة المغول أثر في الروح المعنوية، فيقاتل القائد أمام الجنود، ويُنادى باسمه دون ألقاب⁽⁴⁾، وقبل بدأ القتال تدق الطبول وتنشد الأناشيد الحماسية بشكل جماعي⁽⁵⁾، لتعزز الصف وتبث الرعب في العدو، وكان الاستعلاء الشعوري لدى الجندي المغولي عالي بسبب ما يراه في نفسه

(1) فاتح العالم، الجويني (79/1).

(2) الرسول القائد، خطاب (ص 320).

(3) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (104/3).

(4) المصدر نفسه (108/3).

(5) رحلات، ماركو بولو (14/2).

من تفوق وقوة، وما يشاهده في تعامل القادة المغول مع أعدائهم باحتقار وازدراء، وفي كثير من الأحيان كانت رسل أعداء المغول تقتل أمامهم، دون مراعاة للأعراف⁽¹⁾.

وحرصوا على احضار الشامان -العراف- قبل المعركة، ليقوم بالتنبؤ عن نتيجة المعركة أمام الجيش بالكامل، ما كان يثير حماسة الجنود بشكل كبير، وفي غالب الأحيان يستشار الشامان قبل التحرك للمعركة⁽²⁾.

وللتدريب الجيد أثر في معنويات الجنود، وكانت مهارة الجنود المغول تصل لقنصهم الصقور المحلقة في السماء⁽³⁾، وظهر أثر المعنويات العالية لدى الجنود المغول في استبسالهم في المعارك، وصفهم الجويني بقوله "يحسبون يوم الحرب والنضال ليلة زفاف، ويعتبرون جرح الرماح لثم الملاح"⁽⁴⁾، وينقل ابن فضل الله عن المؤرخ عبد الله بن عبد الظاهر⁽⁵⁾ الذي شارك في إحدى معارك الظاهر بيبرس في بلاد سلاجقة الروم ضد المغول؛ ويصف بسالة الجنود المغول حين ضيق عليهم بيبرس الخناق وقاتلوا قتال المستئس من الحياة بقوله "وكم فيهم من شهم ما سلم قوسه حتى لم يبق في كنانته سهم، وذو سن طارح فما طارحه حتى تتلم... ووصدت ميمنة عسكرنا جماعة من المغل، ذو بأس شديد، فقاتلهم المسلمون حتى ضجر الحديد من الحديد"⁽⁶⁾.

(1) تاريخ، البناكتي (462/1).

(2) طبقات ناصري، الجوزياني (161/2)؛ رحلات، ماركو بولو (14/2).

(3) فاتح العالم، الجويني (111/1)

(4) فاتح العالم (111/1).

(5) عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان الجذامي الروحي السعدي القاضي محي الدين، مؤرخ مصري عاش ما بين (620 - 692 هـ = 1223 - 1292 م)؛ نشأ بالقاهرة وخدم السلاطين الثلاثة الأوائل في دولة المماليك البحرية في مصر وهم الظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، و خليل بن قلاوون، وصارت له رئاسة ديوان الإنشاء. مسالك الأبصار، ابن فضل الله (292/3).

(6) المصدر نفسه (296/3-297).

4. المناورة والمباغطة:

تعرف المناورة بأنها "طريقة الحركة والنقل المدروس للقوات والنييران، في زمان ومكان مناسبين، بغية وضعهما في وضعية متفوقة على العدو"⁽¹⁾.

وتُعرف المباغطة بأنها "الظهور أمام العدو في وقت لا يقدره، وبصورة لا يتوقعها، وتؤدي إلى إرباكه، وإثارة الرعب بين جنوده، فيفقدون اتزانهم فتحل بهم الهزيمة"⁽²⁾.

وترتبط المناورة بالمباغطة ارتباطاً وثيقاً، فالمناورة الصحيحة تضمن مباغطة العدو في غالب الأحيان، وتخدم آليات ووسائل الخداع والمباغطة عملية المناورة.

كانت مناورة الجيش المغولي تعتمد على إرسال قوات استطلاع متقدمة تحدد فيها أفضل الطرق والمسارات، وأفضل طرق الإمداد أثناء المسير، وحرص المغول على تحقيق تفوق على العدو من حيث النقل السريع للقوات⁽³⁾، ومنع حصول العدو على معلومات عن الحركة، كما عملوا على مفاجئة العدو في أماكن غير متوقعة، فتتحرك قواتهم على خلاف كثير من الجيوش في مناطق وعرة وتتقطع فيها الإمدادات، ولا يتأثر الجيش المغولي بنقص الإمداد بسبب تدريبه الجيد، وقلة تكاليف الإمداد، فهو لا يحتاج لحمل الكثير من الأحمال لأن خيوله لا تأكل العلف وتعيش على جذور النبات الصغير والكلاء، ويعيش الجندي على لبن الفرس، وفي الحالات الشديدة يعيش على دم الخيل، كما أن الجندي المغولي وبسبب التدريب الجيد، لديه القدرة على البقاء على صهوة الخيل يومين متواصلين، ما يتيح للجيش سرعة المناورة دون الحاجة للنزول والراحة كل عدة ساعات⁽⁴⁾.

عمل المغول على إجبار أعدائهم على القتال في أراضي غير مستعدين بها، تتيح لهم التفوق عليهم، ويقومون باستدراج القوات لأماكن مناسبة أكثر لهم، حيث ترسل قوة صغيرة لتشتبك مع جيش العدو وتنتظر بالفرار وتقوم القوات المعادية بملاحقتها إلى أماكن مجهزة مسبقاً ككمائن، ليتم القضاء عليها⁽⁵⁾.

(1) واقع تطبيق القيادة العسكرية لكتائب القسام أصول الحرب خلال معركة 2014م، الدالي (ص 49).

(2) المصدر نفسه (ص 48).

(3) فاتح العالم، الجويني (1/126).

(4) رحلات، ماركو بولو (1/142).

(5) تاريخ، البناكتي (1/411).

ونقل البناكتي قيام أبغا خان⁽¹⁾ بخداع أعدائه وتسريب معلومات لهم بأنه ينسحب بجيش كثيف تاركاً أرض المعركة بسبب وجود تمرد عليه في مناطق حكمه، وكان هدفه من هذه الخدعة جر أعدائه لملاحقته في أرض مناسبة له ليقاقل فيها، وتعطيه ميزات على أعدائه، الأمر الذي تم له واستطاع استدراج القوات المعادية إليها⁽²⁾.

واستخدم المغول أشكال من التسلل لضمان مباغته أعدائهم، وتضليلهم، وانتحلوا شخصيات تتناسب مع البيئة الذي ينوون مهاجمتها، ففي المراعي ينتحلون شخصية رعاة الأغنام⁽³⁾، وفي المدن يدعون أنهم قوافل من التجار⁽⁴⁾.

وعمل المغول على اختصار المسافات على الجيوش لتحقيق المباغته، واستخدمت السفن والزوارق الحربية في نقل القوات، وشهد العصر المغولي العديد من المعارك في الأنهار وعلى ضفافها⁽⁵⁾، وبنيت الجسور لعبور القوات على الأنهار⁽⁶⁾.

5. حشد القوة والاقتصاد بالقوة:

يُعرف حشد القوة بأنه "حشد اعظم قوة أدبية وبدنية ومادية واستخدامها في الزمان والمكان الجازمين"⁽⁷⁾.

ويعرف الاقتصاد بالقوة بأنه "استخدام أصغر القوات للأمن أو لتحويل انتباه إلى محل آخر، أو صد قوة معادية أكبر منها لبلوغ الغاية المتوخاة"⁽⁸⁾.

ذكر ابن فضل الله أن المغول أكثر الأمم قدرة على حشد القوة، واستشعر المغول أهمية هذا المبدأ مبكراً وعملوا على حشد وتظافر جهود القوات لضمان التفوق على العدو واستغلال نقاط ضعفه، وعملوا على تثبيت العدو في مواضعه وامتلاكهم تفوق في المناورة والنار، وفي كثير من الأحيان لم يكن للمغول القدرة على الحشد بسرعة، فعملوا على استخدام الأسرى من

(1) أبغا بن هولكو، حكم بعد والده ثمانية عشر عاماً، ومات سنة (680 هـ = 1281م). مسالك الأبصار، ابن فضل الله (119/3).

(2) تاريخ (462/1).

(3) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (147/3).

(4) فاتح العالم (126/1).

(5) المصدر نفسه (119/1).

(6) جامع التواريخ خلفاء جنكيز من أوكتاي إلى تيمور، الهمذاني (ص224).

(7) الرسول القائد، خطاب (ص316).

(8) المصدر نفسه.

الحرب في القتال وزيادة الحشد لجيوشهم، وفي معركة فناكت كان تعداد الجيش المغولي سبعون ألف مقاتل، من ضمنهم خمسون ألف من الأسرى المسلمين الذين جلبوا من أترار وبخاري وسمرقند⁽¹⁾، ولم يقتصر الحشد المغولي على الحشد البشري، لكن المغول استخدموا حشد القوة النارية، فحشدوا النار والنفط للحرق، وأسلحة المدفعية -المناجق- التي كانت ترمي الحجارة وحشوات النفط الحارق، واستخدمت الأقواس والسهم كسلاح قنص فعال⁽²⁾، وحشدت الخيول مقابل المشاة⁽³⁾.

وفي الحالات التي لم يستطع فيها المغول حشد قوتهم بالشكل المطلوب، كانوا يغيرون من أساليب القتال، ويستخدمون تكتيكات تساعد على الاقتصاد في القوة، فعمل المغول على جر أعدائهم إلى كمائن معدة في مناطق تعطيتهم التفوق رغم القلة العددية، كما حدث في معارك أونك خان مع جنكيز خان، حيث كانت قوات جنكيز قليلة العدد مقابل جحافل ضخمة لأونك خان، فجره جنكيز خان لكمين محكم تفوقت فيه القلة على الكثرة⁽⁴⁾.

6. البساطة:

يُعرّف مبدأ البساطة بأنه "تخطيط وإبلاغ وتنفيذ المهام التكتيكية بأبسط الطرق الممكنة، والتي تمكن العنصر المقاتل من فهمها واستيعابها"⁽⁵⁾.

حرص المغول على البساطة في كل المهام العسكرية، وبدأت البساطة لدى المغول في سهولة ترتيب جيوشهم وتنظيمها، فكان للترتيب العشري أثر واضح في تفوق عمليات الحشد وسهولتها، وسرعة إيصال رسائل القيادة إلى الجند⁽⁶⁾، كما اهتموا ببساطة تنفيذ العمليات بأسهل الطرق الممكنة، فاستخدموا السلاالم لعتلاء القلاع الحصينة بدل التفكير بتدميرها، واستخدموا الدهاء لخداع أعدائهم وإيهامهم بأمور تخالف الواقع⁽⁷⁾.

(1) فاتح العالم، الجويني (118/1).

(2) المصدر نفسه (119/1).

(3) رحلات، ماركو بولو (144/1).

(4) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (104/3).

(5) واقع تطبيق القيادة العسكرية لكتائب القسام أصول الحرب خلال معركة 2014م، الدالي (ص45).

(6) فاتح العالم، الجويني (71/1). مسالك الأبصار، ابن فضل الله (189/3).

(7) فاتح العالم (126/1).

لا يعني مبدأ البساطة أن المغول كانوا سطحيين في التخطيط، بل كان التخطيط للمغول يستخدم فيه كافة أنواع الخداع الغير متوقع، لكن تنفيذ العمليات اكتسب طابع البساطة⁽¹⁾.

7. التعرض:

"هو الهجوم على العدو لسحقه، ولا يتم الحصول على النصر إلا بالتعرض وحده"⁽²⁾.

اعتمدت الحروب المغولية الأولى على التعرض قبل تأسيس الدولة، فالقبيلة التي ليس لديها القدرة على التعرض ومهاجمة أعدائها، عملت بشكل دائم على الهرب أو السكن في الجبال لاتقاء شر أعدائها⁽³⁾، لكن الجبال لم تكن دائماً توفر مصادر الرزق والعيش، فعمل المغول على تقوية قواتهم لتكون قوات تعرضية، ولم يكن التعرض بدايةً بهدف التوسع والاحتلال بقدر ما كان للحماية ومنع الاستئصال⁽⁴⁾، فخير وسيلة للدفاع الهجوم، ومن المعلوم أن المدافع لا يستطيع الانتصار على المهاجم إلا إذا تحول الدفاع إلى هجوم مضاد، وبعد الاستقرار وتأسيس دولة قوية عمل المغول على استغلال التعرض للأهداف التوسعية، فبدأ جنكيز خان بمهاجمة بلاد الصين والخطا وخوارزم، ثم بدأ التوسع في كل أرجاء الأرض⁽⁵⁾.

(1) تاريخ، البناكتي (411/1).

(2) الرسول القائد، خطاب (ص313).

(3) تاريخ، البناكتي (400/1).

(4) مسالك الأبصار، ابن فضل الله (103/3).

(5) فاتح العالم، الجويني (111/1).

الخاتمة:

بعد الانتهاء من دراسة صورة المغول من خلال كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري، توصل الباحث إلى العديد من النتائج والتوصيات.

أولاً: النتائج:

- يعد كتاب (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) لابن فضل الله العمري موسوعة تاريخية وجغرافية واقتصادية واجتماعية وسياسية متكاملة، يقدم صورة واضحة للباحثين عن التاريخ العام والحضاري للعالم، والتاريخ الإسلامي بشكل خاص، وهو من أهم المؤلفات التي كتبت في العصر المملوكي.
- البحث التاريخي في أصول المغول يكتنفه الغموض كون المغول لم يهتموا بتسجيل تاريخهم سوى في مرحلة متأخرة، خلط المؤرخون القدامى بين المغول والتتار على الرغم من أنها قبائل مختلفة.
- استند الحكم المغولي على قوانين الياسا التي وضعها جنكيز خان، وأمور الحكم لديهم شورية عبر اجتماع سنوي يطلق عليه القوريلتاي.
- كانت الدولة المغولية دولة علمانية، فالشخص حرّ في اعتناق أي دين، بشرط تطبيق قوانين الياسا، وكان جنكيز خان كان متمسكاً بالديانة الشامانية.
- اتسم الحكام المغول بصفات حسنة، من كرم التعامل مع الرعية والعدل في القضاء على خلاف ما يشاع عنهم.
- تأثرت السياسات المغولية بالخلفية الدينية للمستشارين والوزراء في البلاط المغولي، وكان التأثير الإسلامي كبير في القرارات المغولية، باستثناء بعض الفترات التي شهدت تغولاً للمستشارين النصاري في البلاط.
- تمتعت المرأة المغولية بحضور قوي في المجالات السياسية والاجتماعية والعسكرية، على خلاف حضارات وأمم كثيرة، ومارست السلطات التشريعية والتنفيذية، وتولت الحكم وقيادة الجيوش.
- كان القضاء على الخلافة العباسية من أهم أسباب الخلاف المغولي الداخلي وعلى أثرها بدأت الحرب بين بركة خان وهولاكو، وتفككت الإمبراطورية بعدها إلى ثلاثة دول.
- سيطر المغول على جزء كبير من التجارة الدولية بسبب اتساع مساحة دولتهم وتوسطها للعالم، واستفادوا من خبرات التجار المسلمين، وعمد المغول إلى تعزيز التجارة والمحافظة

عليها وكسب ثقة التجار الدوليين عبر سياساتها وقوانينها التجارية، ومزايا حفظ الأمن والاستقرار، وعملوا على إزالة أي خطر يهددها.

- انفرد المغول في عصرهم بتنظيم قوات بسيط وفعال، ونظموا جيشهم بنظام الوحدات العشرية، وكان جيشهم الأسرع في الاستتفار بالمقارنة مع الجيوش الأخرى التي عاصرتة، وقوة انضباط عالية.

- كان للمغول مبادئ عسكرية يسيرون عليها لضمان تحقيق النصر، وعملوا على مراعات مبدأ التأمين، والمفاجئة، والتعرض، والبساطة، والمناورة، والروح المعنوية، والحشد والاقتصاد بالقوة.

ثانياً: التوصيات:

- إجراء دراسات حول ابن فضل الله العمري ومؤلفاته وخاصة موسوعة مسالك الأبصار في ممالك الأمصار؛ لما تحتويه من معلومات تاريخية اقتصادية واجتماعية وسياسية تفيد الباحثين وتساهم في فهم العالم الإسلامي حتى منتصف القرن الثامن الهجري.
- الاهتمام بإعداد دراسات مركزة حول المغول وتأثير المسلمين في المجتمع المغولي.
- الاهتمام بدراسة الأحوال السياسية والأوضاع الداخلية لدولة المغول وتسلط الضوء على تأثير المستشارين النصاري والمسلمين في سياسات الدولة المغولية.
- ضرورة إجراء أبحاث حول أسباب هزيمة المسلمين في الدولة الخوارزمية رغم توفر الإمكانيات الحضارية والمادية للنصر.
- الاهتمام بإعداد دراسات حول دور المرأة المغولية السياسي والاجتماعي والعسكري.
- تسلط الضوء على النظام البريدي في الدولة المغولية وأثره على سير العمليات العسكرية المغولية.
- دراسة النظام الإداري والعسكري للدولة المملوكية وعلاقتها مع الدول المغولية المختلفة.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: المصادر:

1. ابن الفقيه: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني (ت365هـ=976م) البلدان، تحقيق يوسف الهادي، عالم الكتب بيروت، ط1. 1996م.
2. البكري: أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي (ت487هـ=1094م) المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي 1992م.
3. ياقوت: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت626هـ=1229م) معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1 1993م.
4. الجوزياني: أبي عمر منهاج الدين عثمان المعروف بالقاضي منهاج السراج الجوزياني (ت658هـ=1260م) طبقات ناصري الجزء الثاني، ترجمة ملكة على تركي، المركز القومي للترجمة القاهرة، ط1 2012م.
5. ابن خالكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (ت681هـ=1283م) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، 1900م.
6. الجويني: علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين بن محمد (ت683هـ=1285م) تاريخ فاتح العالم، المجلد الأول، تحقيق محمد عبد الوهاب القزويني، المركز القومي للترجمة القاهرة، ط1، 2007.
7. ابن سعيد: أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي (ت685هـ=1286م) المغرب في حلى المغرب، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف - القاهرة، ط3، 1955م.
8. الهمذاني: رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة أبي الخير بن موفق الدولة (ت718هـ=1318م) تاريخ خلفاء جنكيز خان من أوكتاي قان إلى تيمور قان، دار النهضة بيروت.
9. جامع التواريخ تاريخ المغول المجلد الثاني الجزء الأول الأيلخانيون تاريخ هولاكو مع مقدمة رشيد الدين، دار إحياء الكتب العربية.
10. ماركو بولو (ت724هـ=1324م) رحلات ماركو بولو، ترجمة عبد العزيز جاويد الهيئة المصرية للكتاب، ط2، 1996م.
11. البناكتي: أبو سليمان داود بن أبي الفضل محمد (ت730هـ=1330م) تاريخ البناكتي روضة أولي الأبواب في معرفة التواريخ والأنساب، المركز القومي للترجمة القاهرة، ط1 2007م.

12. **المؤيد صاحب حماة:** أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد، صاحب حماة (المتوفى: 732هـ=1332م) المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، ط1.
13. **النويري:** أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري (ت733هـ=1333م) نهاية الأرب في فنون الأدب، الناشر دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط1، 1423هـ.
14. **ابن عبد الهادي:** شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي (ت744هـ=1344م) تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق، تحقيق سامي بن محمد بن جاد الله وعبد العزيز بن ناصر الخباني، أضواء السلف الرياض، ط1 2007م.
15. **الذهبي:** شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت748هـ=1348م) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1993م.
16. سير أعلام النبلاء، دار الحديث - القاهرة، ط1، 2006م.
17. المعجم المختص بالمحدثين، تحقيق د. محمد الحبيب الهيلة، الناشر مكتبة الصديق، الطائف، ط1، 1988م.
18. **ابن الوردي:** عمر بن مظفر بن عمر بن محمد ابن أبي الفوارس، أبو حفص، زين الدين ابن الوردي المعري الكندي (ت749هـ=1349م) تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1996م.
19. **الصفدي:** صلاح الدين خليل بن أيبك (ت764هـ=1363م) أعيان النصر وأعوان النصر، تحقيق الدكتور علي أبو زيد، الدكتور نبيل أبو عمشة، الدكتور محمد موعد، الدكتور محمود سالم محمد، دار الفكر بيروت، دار الفكر دمشق، ط1. 1418هـ = 1998م.
20. **ابن شاعر:** محمد بن شاعر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاعر بن هارون بن شاعر الملقب بصلاح الدين (ت764هـ=1363م) فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ط1.
21. **السبكي:** تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين (ت771هـ=1370م) طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر، ط2، 1413هـ.
22. **ابن كثير:** أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت774هـ=1373م)، البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث، ط1 1408هـ = 1988م.
23. **ابن رجب:** زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (ت795هـ=1393م) ذيل طبقات الحنابلة، تحقيق د. عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان - الرياض، ط1، 2005م.

24. **ابن الملقن:** سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (ت804 هـ=1402م) العقد المذهب في طبقات حملة المذهب، تحقيق أيمن نصر الأزهرى - سيد مهني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997م.
25. **ابن خلدون:** عبد الرحمن بن محمد بن محمد أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (ت808هـ=1406م) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط2، 1988م.
26. **القلقشندي:** أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري (ت821هـ=1418م) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت.
27. **ابن ناصر الدين:** محمد بن عبد الله أبي بكر بن محمد ابن أحمد بن مجاهد القيسي الدمشقي الشافعي، شمس الدين (ت842هـ=1439م) الرد الوافر، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - بيروت، ط1، 1993م.
28. **المقريزي:** أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين (ت845هـ=1442م) السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1997م.
29. **المقفي الكبير، تحقيق:** محمد اليعلاوي، دار الغرب الاسلامي، بيروت - لبنان، ط2، 2006م.
30. **ابن قاضي شهبه:** أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر الأسدي الشهبي الدمشقي، تقي الدين (ت851هـ=1448م) طبقات الشافعية، تحقيق د. الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب - بيروت، ط1، 1407هـ.
31. **ابن حجر:** أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت852هـ=1448م) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد عبد المعيد ضان، دائرة المعارف العثمانية - حيدر اباد/ الهند، ط2، 1972م.
32. **ابن تغري بردي:** يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (ت874هـ=1470م) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق دكتور محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
33. **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة، دار الكتب، مصر.**
34. **ابن قُطُوبغا:** أبو الفداء زين الدين أبو العدل قاسم بن قُطُوبغا السوداني (نسبة إلى معتق أبيه سودون الشيوخوني) الجمالي الحنفي (ت879هـ=1475م) تاج التراجم ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دار القلم دمشق، ط1، 1992م.

35. **السيوطي:** عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (ت 911هـ=1506م) تاريخ الخلفاء ، تحقيق حمدي الدمرdash، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط1، 2004م.
36. **ابن شاهين:** زين الدين عبد الباسط بن أبي الصفاء غرس الدين خليل بن شاهين الظاهريّ الملطيّ ثم القاهري الحنفيّ (ت920هـ=1514م) نيل الأمل في ذيل الدول ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2002م.
37. **النعمي:** عبد القادر بن محمد النعمي الدمشقي (ت927هـ=1521م) الدارس في تاريخ المدارس ، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، 1410هـ = 1990م.
38. **ابن العماد:** عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي، أبو الفلاح (ت1089هـ=1678م) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ط1، 1986م.

ثالثاً: المراجع:

1. **مؤنس:** حسين (ت1417هـ=1996هـ)، أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، ط1، 1987.
2. **خطاب:** محمود شيت (ت1419هـ=1998م) الرسول القائد، ط2، مكتبة النهضة بغداد 1960.
3. **مختار عمر:** أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت1424هـ=2003م) معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، ط1، 2008م.
4. **أبو خليل:** شوقي (ت1431هـ=2010م)، أطلس دول العالم الإسلامي، دار الفكر، ط2، 2003.
5. **الدالي:** هاني صلاح، واقع تطبيق القيادة العسكرية لكتائب القسام أصول الحرب خلال معركة 2014م ، رسالة ماجستير ، جامعة الأقصى، غزة 2015م.